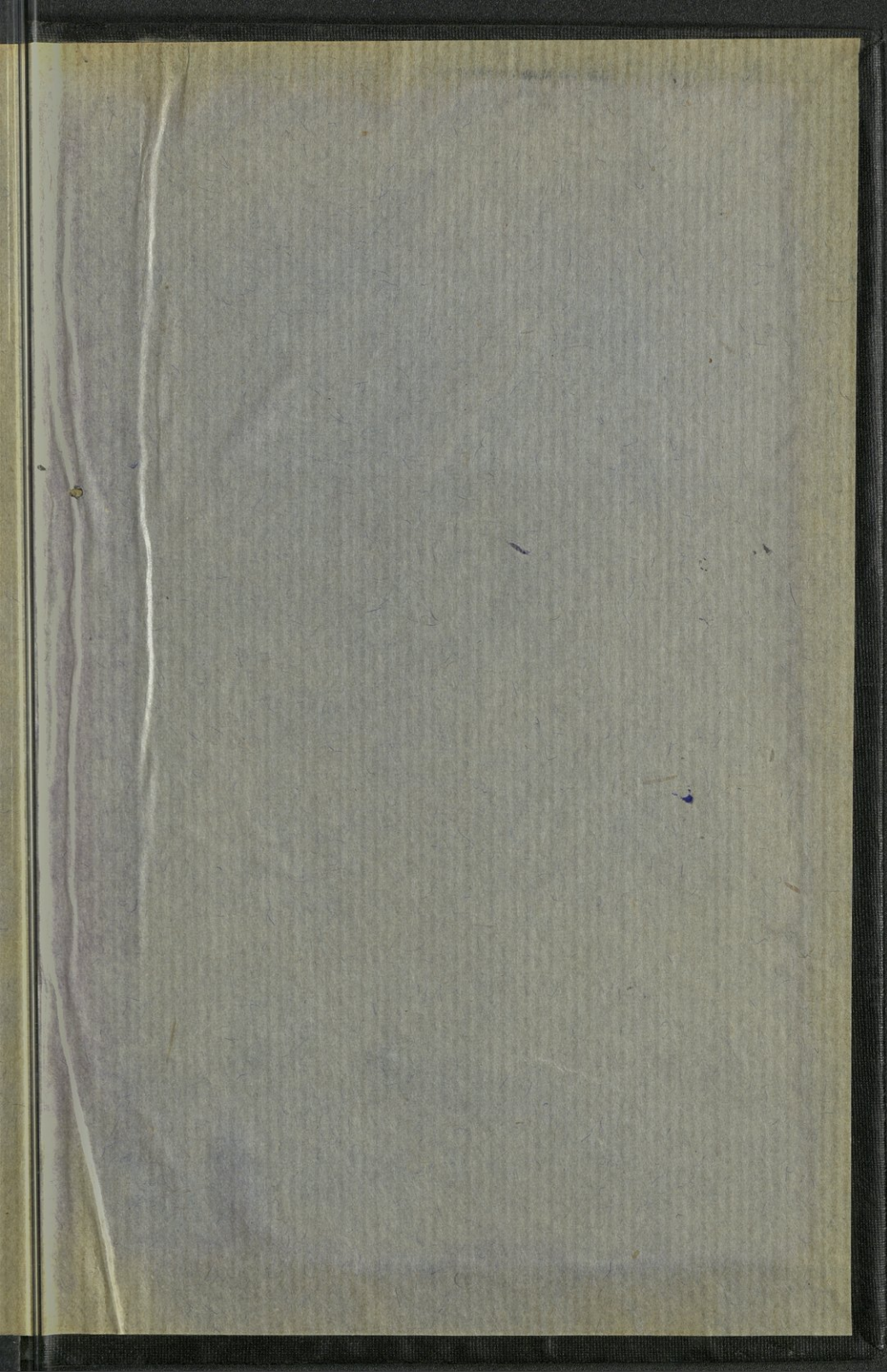


مكوزل

طريق التاريخ



301:M95tA

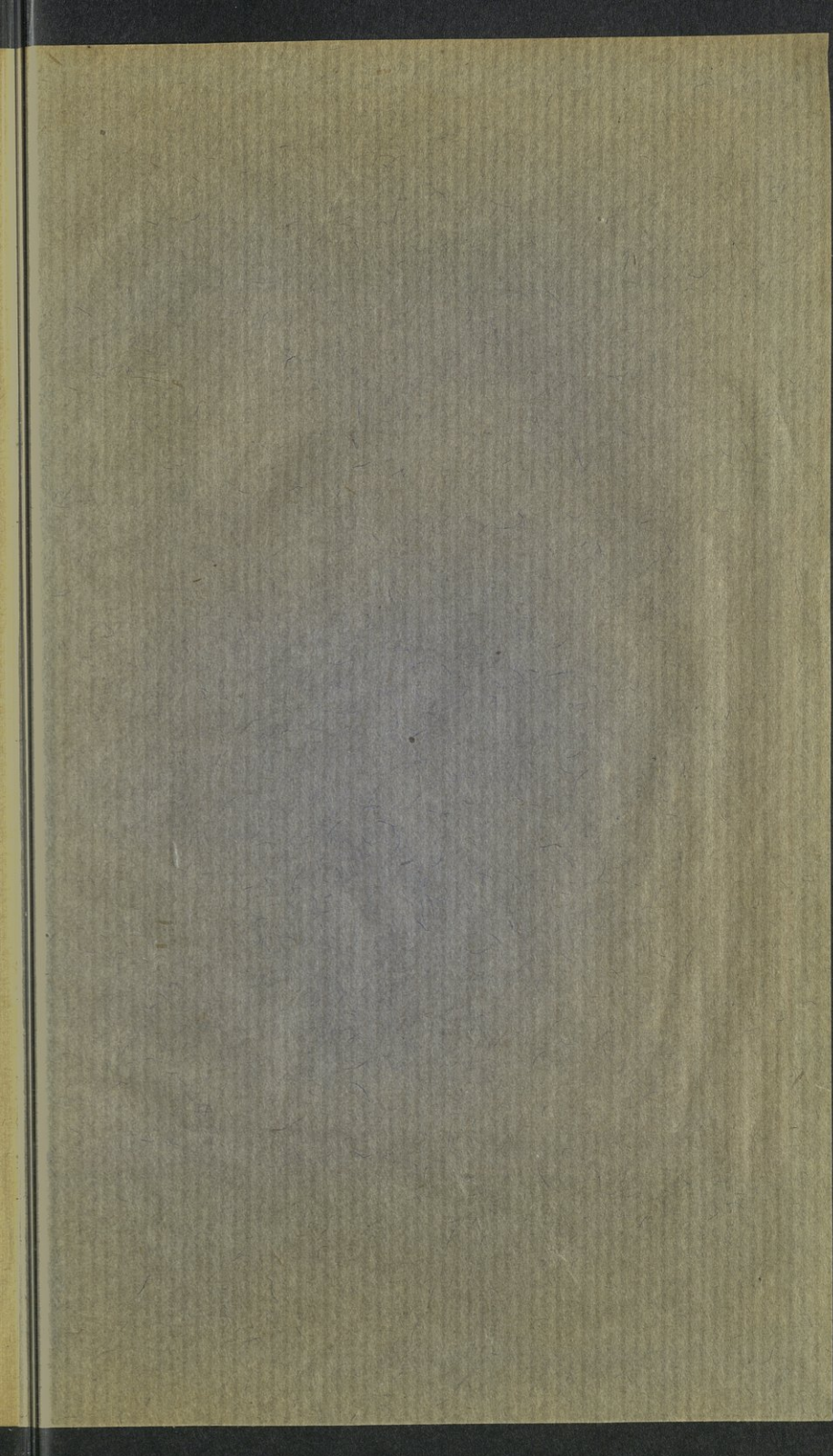
مركز، قبلان.

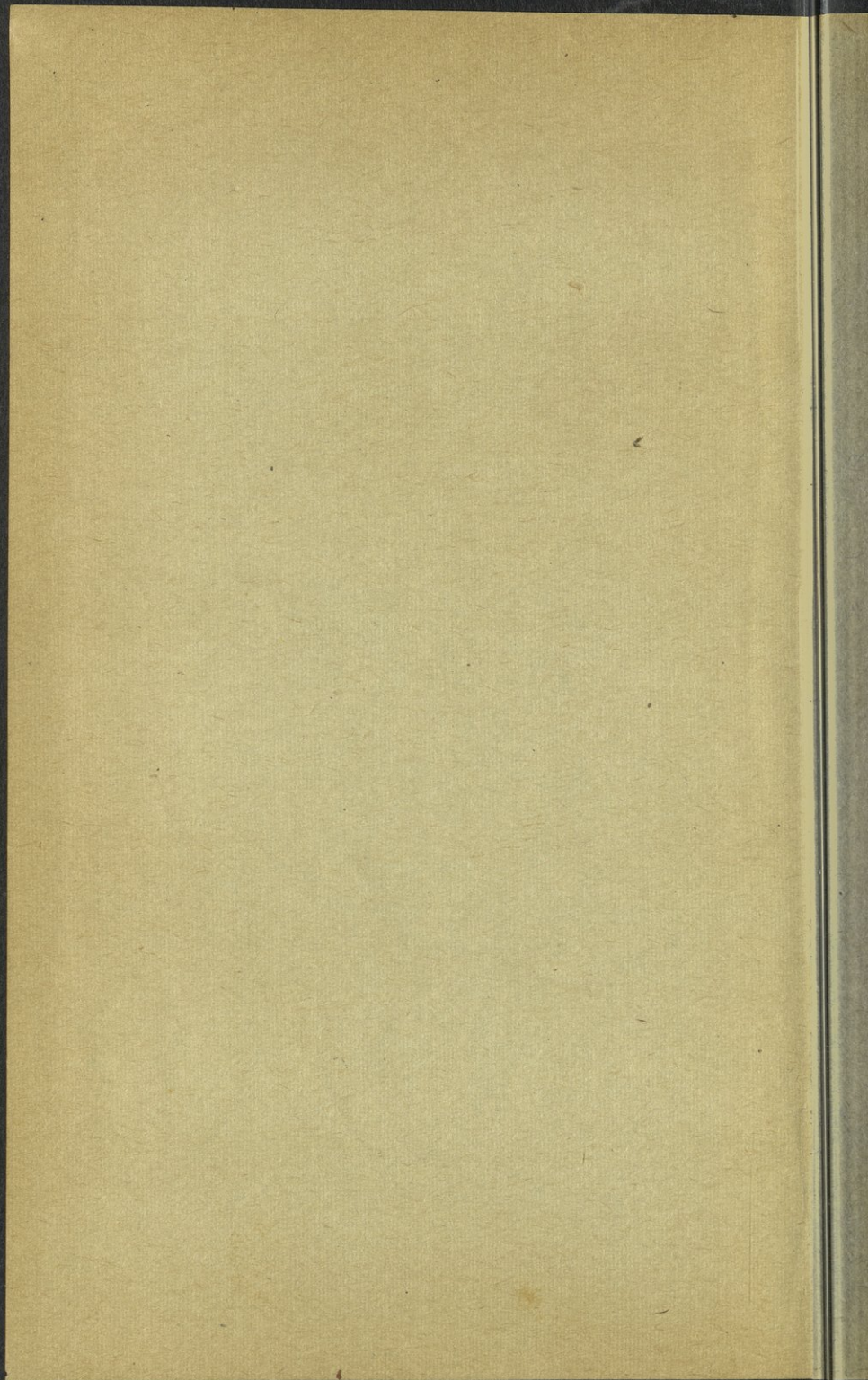
طريق التاب.

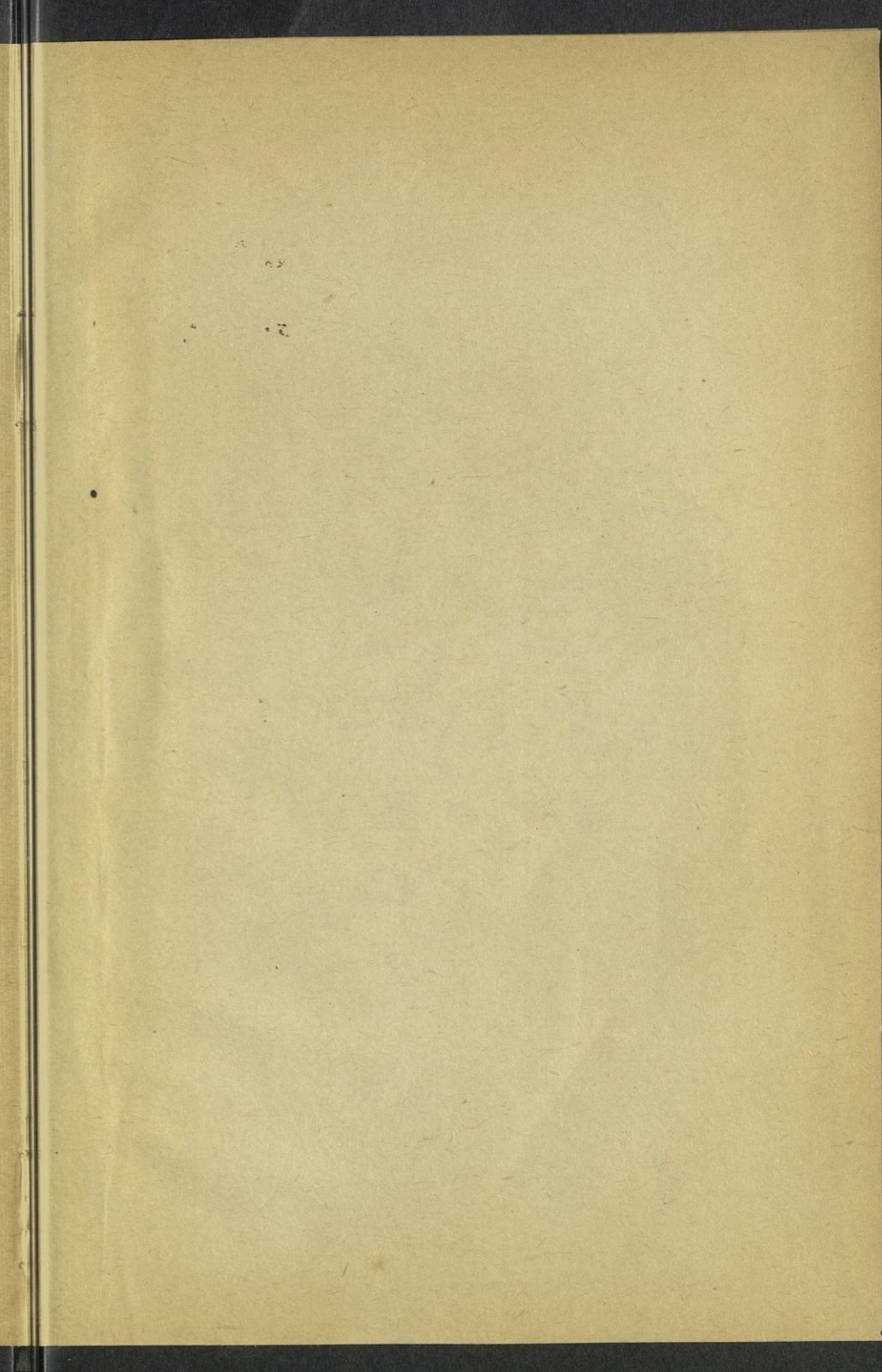
301
M95tA

Jan 18 1957

Jan 18 1957







AS

301
M954A
C.1

مركز

طريق التسلح

الجزء الاول

١٩٥٠

طبع من هذا الكتاب خمسمائة نسخة على ورق عادي
ونسختان على ورق ممتاز

الطبعة الاولى ١٩٥٠

جميع الحقوق محفوظة

تقدمة

الى ارواح ثوار انطلياس واعوانهم ابطال عاميتي

١٨٢٠ و ١٨٤٠

والى ارواح شهداء بلادي في مختلف ادوار تاريخها

المجيد

والى جمهوريتنا الفتية المفداة وعهدنا الاستقلالي الابني

والى بناقي وابنائنا اشبال هذا الجيل الحبيب والاجيال

المقبلة في لبنان وفي سائر اقطار العرب الكرام

اقدم هذا الكتاب .

ق . م .

مقدمة

شرقيّ بلدتنا كهوف قديمة جداً ، كهوف طبيعية ، منفتحة في بطن احدى التلال فوق نبعنا الفوار . كنت ايام الحداثة اذهب اليها مرات في اليوم الواحد وحوالي سرب من بنيات البلدة نلعب في تلك الاماكن المملوءة باطياف الاجيال . وكان نصيب من يتسلل الى سربنا من الصبيان الضرب ، عدا الشتائم البديعة النسيج والتركيب . ومن تواقع منهم فنقّافتي لا تخطى الهدف . ثم اصحت ازورها وحدي كل احد او عيد لآتمرن في هدأتها على ما ينبغي القاؤه في المدرسة من قصائد او خطب .

وما ان خرجت من المدرسة ودخلت معهد الحقوق حتى اتسع لديّ الوقت فشرعت اجتمع - هذه المرة - والشبان في كهف اسمه « مغارة البلانة » لتنظيم ابناء البلدة وجيرانهم في النضال ضد الاستعمار ومطية الاقطاعية . تلك تقاليد غالية ، مقدسة ، ورثناها عن جدودنا وآبائنا الاحرار .

وكنت من وقت الى وقت اجتمع في هاتيك الكهوف وفتاة رشيقة القوام ، كستنائية الشعر ، سوداء العينين ، ابية الجمال كتاريخ بلدتها . فأشرح لها اشياء عن ماضي لبنان وحاضره وابطاله الميامين - المنسيين احياناً - الذين دافعوا عن استقلاله وناضلوا الاجنبي والاقطاعي . فنتناقش بين الآن والآن وتشتد المناقشة ، بتأثير ما تعلمته هي في مدرستها ، حتى الحصام . وكم كنا نتخاصم ، ومع ذلك فلا قبل لاحدنا ان يفترق عن الآخر .

لكني سرعان ما كنت أنسى كل شيء عندما اسمع صوتها العذب يرتفع باناشيد الجمال والنضال كالهضبات ، وينخفض كإغوار الوادي الأغن ، وينداح ناعماً حنوناً كموجبات الشاطئ ، مهيب الأبعاد كسير التاريخ .

ولا يطيب لي إلى اليوم إلا أن أزور هذه الكهوف ولو مرة في الأسبوع ، ويدها في يدي ، وحولنا أولادنا يلعبون هازجين في تلك الأماكن التي ترعرعنا يوماً فيوماً بين هضباتها الأزليّة الاخضرار والاحلام .

كنت عهد ذلك أقرأ جبران والريحاني وروسو ومونتسكيه وفولتير وهيجل ثم دروين وماركس وأنجلس ومورغان الأميركي الذي قضى شطراً من حياته يحبب المجهل والجزر - في أميركا والمحيط الهادئ - ليدرس عن كتب حياة ناسها البدائيين ؛ كما كنت اطالع عديدين غيرهم .

وإن ما تقرأه هنا الآن يا ابن بلادي هو واحد من المواضيع المتسلسلة التي كنت اطالعها تحت كل شجرة وفي حنوة كل صخر من صخور بلدي وشجراتها ؛ فأدوّن النواحي التي اعتقدتها صحيحة من هذه المواضيع وأعلق عليها أو انقح ، ثم اتناقش ورفيقي فيها . وكان علي أن اسمي هذا المؤلف البسيط الخالي من الزخرفات الكتابية : « ناموس التطور الاجتماعي » مثلاً . وإنا سميت كذلك حرصاً على تعبير رفيقة أيامي إذ كانت تقول لي عندما نجتمع في هذه الكهوف : هات لنا شيئاً عن « طريق التاريخ . »

المؤلف

الجنين بعيد التاريخ

يقال ان الحياة هي المرحلة التي يجتازها الكائن الحي او الانسان من رحم امه الى رحم التراب . هكذا يعتقد البعض . بيد أن الحياة اقدم عهداً من ذلك وابعد مدى . انها بدأت منذ « الخلية العضوية » الاولى - منذ ملايين السنين - وقد تستمر الى ما لا نهاية له .

هاك الجنين . فهو يختصر لنا خلال التسعة الاشهر في رحم امه تاريخ تطور الجنس البشري منذ الخلية الاولى حتى شكلنا الحالي . فيبدأ خلية واحدة لا تلبث ان تسير على ناموس الانقسام المتصل ، اي النمو . ثم يتخذ جسمه شكلاً حلقياً فخياشيم كالاسماك : وفي هذا رمز الى المرحلة التي اجتازها الجنس في مياه البحار . وتظهر بعد ذلك اليدان والرجلان والذنب ... ثم يتوارى الذنب ويطرأ في جلد الجنين شعر يجعله اشبه بجلد البهائم : وهذا ما يشير الى ان الجنس كان قد خرج من ضحاح البحار الى ضواحي السواحل والغابات . ثم تزول هذه الظواهر من الجنين فيشرع باتخاذ الشكل الذي وصل اليه تطور الانسان في عهده الحاضر : وهذه ليست الصفحة الاخيرة في تاريخ تطور الجنس البشري .

ولا يزال يظهر الى اليوم - عند الولادة - فلتات عجيبة : كجنين يولد بشكل حيوان او يولد وله ذنب او عدة اثناء او غير ذلك . ان هذه الابقايا تعود بين الحين والحين فتذكرنا بتلك الاشكال العديدة التي اتخذناها خلال الازمنة السحيقة الأبعاد . وقد يولد اشكال ترمز الى شيء من انسان الغد ايضاً ...

اما كتابي هذا فلا يتناول تلك الناحية من تطور الانسان بل ناحية التطور الاجتماعي : منذ المجتمع البدائي العريق الى اليوم .

المجتمع العريق

عرف تاريخ البشر في طريق تطوره اربعة مجتمعات :

١ - المجتمع البدائي العريق : وهو لا طبقي .

٢ - مجتمع الرق : الطبقي الاول .

٣ - المجتمع الاقطاعي : الطبقي الثاني .

٤ - المجتمع الرأسمالي : الطبقي الثالث .

ونرى المجتمع الرأسمالي اليوم يتمخض بظروف المجتمع الخامس ،

مجتمع المستقبل البعيد .

نبدأ بدرس المجتمع الاول، العريق (وسنصدر عنه كتاباً خاصاً) . انه قديم جداً . مرت به او بخطوطه الكبرى سائر شعوب الارض . لم يكن فيه تملك فردي ولا استثمار ولا طبقات ، وبالتالي لا نضال طبقي . وهو يقسم الى مرحلتين : مرحلة وحشية متأخرة دامت عهداً طويلاً جداً ومرحلة بوبرية ارقى نسبياً .

المرحلة الاولى :

لنتجرد قليلاً من حاضرننا وننصرف الى تلك الغابات الكثيفة الغيباء . غابات ذلك العهد البعيد . فنرى انواعاً عجيبة من الاشجار والحيوانات الضخمة وغير الضخمة ومن الاطيار المدهشة الاجناس والاشكال والاحجام . كائنات قد انقرض الكثير منها ، وتطور الكثير وتغير . ولم يبق ما ينبئنا عن بعضها الا بطون الارض والانهر والبحيرات واحشاء التلوج الازليه .

ولتتناس ولو مؤقتاً مختلف صناعات زماننا وزراعاته وبنائاته ومخترعاته
وتشريعاته وفنونه الجميلة وغير الجميلة ، وتلفت الى غابات ليس فيها شيء
من هذه البدائع . في تلك الغابات كان البشر الاقدمون يعيشون مرحلتهم
البدائية ، الوحشية . يعيشون كحيوانات الغاب . وهم ايضاً قد انقرض
منهم اجناس وتطور الباقي كثيراً . كانوا ينتقلون عراة حفاة في مختلف
الغابات ويأكلون ما تقع عليه عينهم من الاثمار التي تهيئها الطبيعة وما
يطيب لهم من عروق الاشجار والنباتات . ذلك قبل اهتدائهم الى النار .
وكانت لغاتهم تقاطيع اصوات واشارات . وسلاحهم ضد الحيوانات :
الحجارة بشكلها الطبيعي — في بادئ الامر — والاغصان ، او الهرب الى
اعالي الشجر او الى الاماكن الصعبة المسالك في سفوح الاودية او صدور
الجبال . انهم لم يهتدوا الى صيد الحيوان بعد . بل قويه كان يتحداهم .
لذلك لم يعرفوا الحياة المنفردة كما اعتقد بعض العلماء . بل عاشوا اسراباً ،
جماعات . ولولا ذلك لما استطاعوا أن يدافعوا عن أنفسهم ، ان يدرأوا
تلك الحيوانات الصوالة الضخمة كالقلاع والتي انقرض اليوم الكثير منها .
لقد افترست كثيرين من جدودنا هذه الحيوانات ، كما قتلوا هم كثيراً منها
مجتمعين . ان حياتهم المتكتمة كانت سلاحهم الاهم في غابات ذلك العهد .
ولم تكن القطعان او الاسراب البشرية ثابتة في بقعة واحدة . بل
كان جدود البشر يعيشون رحلاً من غابة الى غابة وراء الاثمار .
وينامون ، ليس في القصور ولا في الكهوف والمغاور ، بل حيث تغيب لهم
الشمس . وكان تراوهم خليطاً كضواري البوية او كاطيارها : انهم لم
يعرفوا . الحياة العائلية عهد ذلك .

وبعد حقبة من الزمن اهتدوا الى استعمال النار . استعملوها للتدفئة
ولشيء بعض ما كلهم ومنها البزاق والسرطين والاصداق ، ولتخويف
الحيوانات في الليل وما الى ذلك . وكانت النار خطوة جلي الى امام بل

ثورة كبرى غيرت مجرى حياتهم : اذ اعطتهم طريق العمل التي نقلهم نهائياً من طورهم الوحشي الى طريق التطور الاجتماعي ، الانساني . الحيوان ، ان يشتغل ، فهو لا يصنع آلات . اما الانسان فاخذ يصنع — قبل غيره من حيوانات الغاب — حيوانا يشتغل ويصنع ادوات للشغل ويضرم النار . بدأ يسيطر على الطبيعة .

وجعلت بعض النساء يصبحن اغنيج حيوان على سطح الارض ! واستعملهن النار درجهم الى الصيد المائي ، صيد الاسماك وشيها . فشرعوا يخرجون من ظلمات الغاب الى الافاق المشرقة ويتنقلون على ضفاف الانهر . وراحت ظروف الصيد المائي نفسها تهديهم الى مختلف الوسائل التي تمكنهم من صيد كمية اكبر .

وكم في الغاب ايضاً من حيوانات يمكن شئها على النار كالاسماك ... انها تثير القابلية . والقابلية — ككل شيء في الدنيا ، وكالغرائز — قابلة للتطور .

وشرع سلاحهم « البري » يتطور : من غصن شجرة بسيط الى نبوت ، فالى غصن برأسه مداد من حجر كالحربة ، فالى قوس ونشاب . وهنا بدأ صيد الحيوان وكذلك « صناعة » الادوات الظرفانية كالشفار الصوتية والمخارز والازاميل والاسافين والمناشير والكواشط ورؤوس السهام الدقيقة التي اخذت تظهر — كعمل جدي — عند بدء الصيد البري والتي ترىنا منها الكهوف الطبيعية وحنوات الصخور بقايا متنوعة ومهوسة التطور : اذ جعلوا يأوون الى المغاور منذ هذه المرحلة ، مرحلة بدء الصيد البري . ونرى بعض الكهوف كأنه كان « معبلاً » لصناعة الادوات الظرفانية هذه الراسبة بكثرة في احشاء ارضه والتي كانوا يستعملونها لسلخ جلد الحيوان وتقطيع لحمه وفلتي عظمه واستخراج ما فيه من مخ . ولكل من هذه الادوات وظيفتها . تنوعت اشكالها بتنوع الحاجات اليها .

ثم ظهرت الفأس الحجرية التي استعملوها فيما بعد لقطع الشجر وبناء
أكواخهم .

وجعل الصيد البري يصبح اهم موارد غذائهم بالنسبة للشر وصيد
السمك . ومع ذلك فغذاؤهم كان لا يزال كفاف يومهم .

هنا تنتهي المرحلة الوحشية . وملخصها : عاشت القطعان البشرية في
اوائلها متنقلة وراء الاثمار والنباتات . وفي اواسطها اهتدت القطعان الى
استعمال النار للتدفئة وشي البزاق والسرطين ثم الاسماك . وفي اواخرها
ظهرت القوس والنشاب ثم الفأس الحجرية ، فدخلت القطعان مرحلتها
البربرية الممتدة الى بدء نظام الرق اي الى التاريخ المكتوب كما سنرى .

المرحلة البربرية:

ان الصيد البري جعل حياتهم المتنقلة تتجه للتمرکز في هذه الغابة او
تلك الى ان تنضب ثمارها ويشح حيوانها . انها لم تتركز نهائياً بعد ، بل
تتجه اتجاهاً الى التمرکز . لذلك اخذ الناس كما قدمنا يأوون الى
الكهوف الطبيعية ، حيث هناك مغاور وكهوف ، كما اخذت بيوت
الصيادين تظهر . انها مصنوعة من اغصان الغابة — بفضل النار والفأس
الحجرية — او من الهشيم وبعض الاتربة المرطبة ... ويتسع الواحد منها
لعشرات الاشخاص بل للسرب باجمعه احياناً .

وكان اكثر الرجال يذهبون الى الصيد واكثر النساء يعتنن
بالبیوت — الاكواخ الواسعة او الكهوف الطبيعية — وبالاطفال والعجز
وبشي او طهي ما اصطاده الرجال . كان الجدود الصيادون يذهبون الى
الصيد مشتركين ويأكلون نتاج صيدهم مشتركين ايضاً . وكانت عمل
النساء المنزلي متعادلاً وعمل الرجال بل ارجح . لذلك كن مساكنات

للرجال في سائر مظاهر الحياة الاجتماعية التي عرفتها قبيلة الصيادين .
وسنشرح هذا في حينه .

واخذ العمل المنظم في الصيد البري ينظم في الوقت نفسه علاقاتهم الجنسية ،
النسائية . فبعد ان كان التزاوج حلقة اختلاط جنسي واحدة واسعة تعم
القطيع بأسره اصبح في عهد الصيد البري حلقات عديدة لا علاقة جنسية -
في اول الامر - بين افراد حلقة ما وافراد حلقة ثانية . لكنه لا يزال في
داخل كل من هذه الحلقات اختلاط عميق مزيج : جميع ذكور الحلقة «الخاطون»
جميع اناثها بدون استثناء . فالاب والحالة هذه لم يزل غير معروف ، اما
الام فمعروفة ، طبعاً . اذن خط القرابة ما يزال خط الرحم ، خط الام .
وعلى الرغم من ذلك فهذه الحلقات انظم من الخليط الواسع السابق .
وافضلها نسبياً حلقة « الجانس » الرحمة - عائلة الصيادين - التي سنمر
بها في حينها ايضاً . اما الآن فلنعد الى تطور وسائل العمل .

تمتاز الاحقاب التي قطعناها الى هنا باستعمال النار والصيد المائي ولا
سيا الصيد البري . فنرى ابناءها قد بدأوا يسيطرون بعض الشيء على
وسائل لاقتناص العيش . لكنه لا يزال كفاف يومهم . وقد استعملوا
الى الآن اشياء كثيرة ، مثلاً : من ألياف الشجر صنعوا حبلاً . ومن
الفزّار والقصب او من بعض القضبان المستطيلة اللدنة صنعوا السلال .
ونسجوا اشياء من ألياف دقيقة كانوا يستلونها من بعض النباتات او
الاشجار ثم من اصواف الحيوانات التي يصطادونها . لكن النسج لم
يصبح صناعة بعد . وقد لبسوا من جلود تلك الحيوانات احياناً . ومن
الحجارة صنعوا ايضاً فأساً ذات صلابة لا بأس بها . وكانت النار والفأس
الحجرية تنفعانهم لحفر زوارق من جذوع الاشجار ولصنع الخشب لبناء
بيوتهم ، اكواخهم كما قدمنا .

هذا عدا الاواني المنزلية التي صنعوها من الخشب ومن قشور بعض

الاثار كالجوز الهندي ثم - بعد ذلك - من الفخار .

لم يبق جدد البشر في جهل مطبق تجاه الطبيعة . بل اصبحوا في عراك دائم معها ، يعملون رويداً رويداً لتسخيرها ، للاستيلاء على طرائق ووسائل لانتاج رزقهم . وكانت هذا العراك مع الطبيعة - وأهم مظاهره العمل - يلفت نظرهم وحواسهم الى حوادث - وظواهر طبيعية - عديدة تضرب دماغهم وتحملهم شيئاً فشيئاً للافادة منها . اليك مثلاً بسيطاً : كانوا يضعون النار في حفرة صغيرة من الارض ، او بين عدة احجار ، او يسيجون عليها ببعض الاتربة الرطبة ليقوها من الهواء . فشاهدوا مع التكرار ان بعضاً من الاتربة يشتد على النار ويتقسي . فاخذوا يكتفونه ويصنعون منه اوعيتهم وآنيتهم لوضع الماء او لسلق ما كلهم . وعلى هذا النحو اهتموا الى استعمال الصلصال وتطويره مع الوقت الى صناعة الفخار التي هي ابنة تلك المرحلة من التاريخ .

وها هم يبتدون بعد مرحلة من الزمن الى تدجين الحيوان . قد يكون الصيد البري هو الذي هداهم للتدجين ، كأن يلفت نظرهم الى حيل تمكنهم من اقتناص الحيوان حياً ليأكلوه عند الحاجة . وقد يكون هداهم اليه بدء عبادة الحيوان ، فيحتالون على بعض الحيوانات الضعيفة ويبقونها حية معتنين بها لتضحياتها في يوم العيد .. وسرعان ما اصبح تدجين المواشي ورعيها اهم الاعمال في القبيلة . انها ثروة تولد ثروات . وهي لا تفسد بعد ايام كالثمار والاسماك والحيوانات المقتولة . اذن هي صالحة لان تكون من الاسس العتيقة التي يمكن ان يركز عليها التملك الفردي ... وهكذا ايضاً توطدت عبادة الحيوان في هذه المرحلة .

وقطاف الاشجار التي بدأوا يعتنون بها في هذه المرحلة من تمر كرم النسبي ليأكلوا من ثمارها عند الحاجة كان اشد العوامل في هديهم الى الزراعة .

وجعل العمل الزراعي - بما فيه بعد ذلك زراعة الحبوب - يتطور حتى أصبح أهم أعمالهم . عندئذ أخذوا يتسمرون الى الارض ، ويتلاشى ترحالهم : انهم ينتظرون المواسم والغلات .

ثم هاهي البيوت الحجرية تتفسر ، وقبالتها تتفسر هياكلهم ومدافنهم ؛ مدافنهم التي بدأت منذ بدء حياتهم العائلية الحلقية وتطورت من دفن في الشمس او في المطر - اي ترك الميت او العاجز على الطريق في عهد التنقل المستمر ، او اكله - الى مدافن ترابية اي تحت ردة من التراب او بعض احجار فالى قبور فخارية فالى مدافن منحوتة يدهشنا احياناً صنع نواويسها . وكانوا قد تدرجوا الى صهر الحديد غب اهتمامهم الى عدة معادن قبله كالرصاص والنحاس . فازدهرت صناعة تلك الظروف عاضدة الزراعة بسكة للحراثة من حديد بعد السكة الخشبية التي سنانها من حجر . وكانت صناعة النسيج قد تطورت ايضاً واصبحت - بواسطة الانوال - قسماً جديداً من اقسام العمل .

وهكذا جعل جدود البشر يخرجون رويداً رويداً من مرحلتهم البربرية الى « التاريخ المكتوب » حاملين الالجدية ، ومعهم - عدا الانوال وسكة الحراثة الحديدية التي يجرها الحيوان والتي عملت على تحويل الارض الى مزارع غناء - معهم الميتولوجيا - المعتقدات القديمة الغريبة الجمال - وانايد الشعراء الخالدين ، كهوميروس ، المنعكسة فيها تلك الاحقاب التاريخية البعيدة : فنرى ادوات العمل مصنوعة من الحديد كما نرى المطاحن يديرها الهواء ، والمعاصر لتحضير الزيت والخبز ، ونرى صناعة المعادن كقرع في من فروع العمل ، وعجلات الحرب وبناء المراكب والسفن وتطور فن النحت والنقش وتحصين المدن بالاسوار والقلاع الضخمة ...

نحن الآن في مجتمع الرق ، المجتمع الطبقي الاول . وسنتكلم عنه
بعد حين .

ولا يعتقدن احد ان تطور البشر كان في سائر بقاع الارض متوازيًا .
فبعض جماعات كانت قد اهتمت مثلاً الى الزراعة في بعض الاماكن بينما
غيرها في جهات اخرى كانت لاتزال تعيش على الصيد ، وغيرها على ثمار
الغابات . ثم ان هذا التطور قد لزمه قرون طوال . وقد يكون لزمهم
قرون طوال ايضاً بين اهتمائهم الى وسيلة عمل او انتاج ما واهتمامهم
الى وسيلة اخرى ، عدا ان هذا التطور كان مستقلاً في الاساس عن ارادة
الناس وعن سابق تفكيرهم وتصميمهم : حوادث العمل هي التي قادتهم
من معرفة الى معرفة ومن مفاجأة الى مفاجأة . هم لا يعلمون الحوادث
بل هي التي تعلمهم . وكان هذا التطور متداخلاً ايضاً ، متداخلاً جداً . فقد
ظهرت صناعة النسيج مثلاً - وان بشكل او بآخر - منذ عهد
الصيد البري .

وجدير - قبل بحث مجتمع الرق - ان نقول شيئاً عن نشأة الطبقات
والتملك الفردي .

تفكك المجتمع العربي

و نشأة الطبقات والتملك الفردي

عندما كان البشر يعيشون على ثمار الغابات ثم على الصيد المائي فالبري لم يكن بوسعهم الا الحصول على ما يكاد يكفيهم لسد الرمق؛ لان وسائل عملهم كانت لا تزال ضعيفة وكذلك نتاجها . عدا ان هذا النتاج قابل للفساد ان لم يستهلك عاجلاً . لذلك لم يكن للتملك الفردي من اساس . فكان العمل مشتركاً ومثله الاستهلاك : الصيادون يعملون مشتركين ويستهلكون نتاج عملهم مشتركين . لكنهم عندما اهتموا الى تدجين المواشي ورعيها — هذه الثروة التي تولد ثروات — والى بدء الزراعة والنسج ، اصبح بالامكان — بعد الاهتمام الى هذه الاعمال الانتاجية — ان يخلقوا كميات ابن منها قوة استهلاكهم . وكان العمل قد اخذ يتجه الى الانقسام التدريجي : بين رعي المواشي من جهة ، والزراعة من جهة ثانية . وهنا : جعلت الطبقات تظهر ، او نظام الرق ، كما سنرى فيما بعد . ثم بين الصناعة ، لا سيما صناعة النسج ، والزراعة . ومن الطبيعي ان تستغل كل فئة في القبيلة على ميدان من ميادين العمل او في قسم من اقسامه وفروعه وتمتلك — هذه الفئة او تلك ، تدريجياً — ادوات انتاجها ومنتجاتها .

لم يكن بالامكان ظهور التملك « الضيق » الا بعد انقسام العمل . لكنه لا يزال الى هنا تملكاً عائلياً ، تملك « الجانس » او عائلة الصيادين الرحمة . ثم ان التبادل الذي تنظم بين القبيلة والقبيلة عهد تربية المواشي

ورعيها ، بعد ان كان قبل ذلك رهن المصادفات ، قد تطور الآن واخذ يجري ايضاً بين العوائل في داخل القبيلة نفسها . وكان هذا التبادل التجاري يقوي غزو التملك العائلي ، الجانسي ، الذي لم يصبح بعد تملكاً فردياً .

وقبل الاهتداء الى ما للذهب من مزايا علوية كانت الماشية تقوم مقامه في تبادل المنتجات ، اي كانت الماشية هي المقياس العام في التبادل . وكان الرعاة ، وبيدهم هذا المقياس العام ، ينتشرون معه معتزين بعيداً عن مجموع القبيلة ، في السهول الخضراء وعلى سفوح الاودية الظليلة وضفاف الانهر . واما الذهب فكان يستعمل للزينة — للزينة فقط — يذوب لمعاناً على صدور البربريات قبل ان ذابت على لمعانه اعراض الحضريات وقبل ان اصبح المقياس العام لمواشي المجتمع الطبقي وبضائعه واخلاقه .

ثم ان الاعمال التي اشتغل بها الرجال مجال تطورها واسع : من الصيد المائي ، الى البري ، فالى تربية الحيوان ورعيه ، والى الزراعة والصناعة . اما الاعمال المنزلية التي تقوم بها المرأة فمن طبيعتها أنها ضعيفة التطور بالنسبة لتلك ، على الرغم من مساهمتها الفعالة في العمل الزراعي : فاصبح الرجال ينتجون كل شيء . وراحت النساء ينحدرن رويداً رويداً الى الدرجة الثانية في المجتمع بالنسبة لدور الرجال . اذ ان المشورة بشؤون العائلة الرحمة وادارتها اخضعت من شأن الرجال ، المنتجين كل شيء ، وخاصة الاكبر سناً بينهم . ثم لم يلبث هذا الاكبر سناً ان تسلم كل مقدرات العائلة : هو التملك العائلي الجانسي يتطور الى تملك فردي يبدأ بـكبير العائلة الجانسية او الرحمة .

ولنتبين الى ان الزواج لم يكن فردياً بل اخذ الزواج الفردي يظهر تبعاً لظهور التملك الفردي ، تملك كبير الجانوس الذي انتهى تدريجياً الى تملك الافراد .

اجل، تغلب الرجل على المرأة في مرحلة تفسخ المجتمع العريق وتغلب معه خط العصب على خط الرحم كما سنرى في الفصل المتعلق بتطور العائلة. وهكذا تفسخ المجتمع العريق. فمن عمل مشترك يسود قبيلة الصيادين الى انقسام الاعمال: تربية المواشي او رعيها والزراعة والصناعة، مما ضاق به نطاق العمل المشترك وقتذاك وامسى بقاؤه معرقلاً لتقدم القوى الانتاجية الجديدة. ثم من تملك مشترك الى تملك عائلي جانسي فالى تملك فردي يبدأ بكيور العائلية الجانسية. ومن خط الام في القرابة الى خط الاب، واصبح الناس لأول مرة في التاريخ يعرفون آباءهم... وعلى الرغم من ذلك فالتملك الفردي كان تقديمياً، ضرورياً لتطوير وسائل العمل وادواته. وكذلك الزواج الفردي: انه تقديمي وضروري بل هو اتم شكل للزواج بوغم جرثومة الزنى التي في تلافيفه. فالزنى في الزواج الفردي يمتُ بصلة وثقى الى الاستثمار في التملك الفردي.

مجتمع الرق

هو المجتمع الثاني ، او المجتمع الطبقي الاول . انتقل اليه الناس من المجتمع العريق . انتقلوا بدون ثورات . لان المجتمع السابق ، العريق ، لم يكن مبنياً على طبقات وبالتالي لم يكن ثمة نضال طبقي .

وكان مجتمع الرق تقدماً في مرحلته الاولى ، ضرورياً لرفع مستوى الزراعة ؛ فهي بحاجة الى ايد عاملة غزيرة ، غريبة عن القبيلة ، اذ لم يعد يكفيها عمل العائلة الجانسية الضيق النطاق . وكذلك الصناعات . نشأت ظروف مجتمع الرق في صدوع المجتمع العريق - في مرحلة تفسيخه - وراحت تعمل على ازالته . ذلك عندما بدء العمل المشترك ينقسم الى تربية المواشي ورعيها من جهة والى الزراعة من جهة ثانية كما ألحنا ، اي عند انفصال الرعي عن الزراعة ؛ اذ احتاجت الارض الى ايد عاملة غزيرة : الشيء الذي لم يكن متوفراً في القبيلة . فراحت هذه القبيلة التي عرفت الزراعة تغزو الاسراب او القبائل المتأخرة التي لا تزال تعيش على الاثمار او الصيد المائي او البري ، ثم تأتي بالاسرى وتسترقهم ، تجعلهم ارقاء يتدربون على الشغل في الارض وفي المنازل . وفي كثير من فروع العمل . وكانت حالتهم في بادئ الامر لا بأس بها . كانت حسنة ، يعيشون في الجانس كسائر افراد . اي لم يعد افراد الجانس يقتلونهم او يأكلونهم بل يشتغلون واياهم . وقد برز منهم نوابغ ابتدعوا تعديلاً وتطوراً في شتى ميادين العمل والفن .

لكن الحال لم تبق على هذا المنوال لا سيما بعد الانقسام الثاني للعمل ،

ذلك الانقسام الذي حدث بين الصناعة والزراعة ؛ اذ اصبحت سائر اقسام العمل وفروعه ولا سيما الزراعة بحاجة قصوى الى عدد من الايدي العاملة اضعفهم : الحروب قمينه بخلفه .

وهكذا ، فلم يكف الانقسام الاول في العمل بأن عمل على خلق التملك العائلي الجانسي الذي تطور الى تملك فردي بادىء بكبير الجانس بل كان قد اوجد في الوقت نفسه طبقة من الارقاء ما لبث الانقسام الثاني — انفصال الصناعة ، لا سيما النسيج ، عن الزراعة — ان وطدها وضمها .

اجل ، هكذا ظهرت لأول مرة في تاريخ البشر طبقتان : طبقة مالكة ادوات الانتاج والمنتجات وطبقة غير مالكة بل هي نفسها مملوكة ، هي نفسها وسيلة انتاج . الاولى طبقة الاسياد والثانية طبقة الارقاء — هذه هي علاقات مجتمع الرق الانتاجية اي علاقة الطبقات بادوات الانتاج ، ونوع التملك المطبق على تلك الادوات .

وكان بين هاتين الطبقتين جماعات متوسطة الحال : هم احرار . ليسوا ارقاء . وليسوا اسياداً ايضاً لانهم لا يملكون ارقاء . بل كانوا يقعون هم انفسهم في الرق لاسباب عديدة كأن يفتقر احدهم او يعجز عن تأدية ما عليه من الديون . فيمسي رقيقاً للدائن ، للتاجر او للمراي . اذ من المعروف ان المال في حركة دائمة كاسماك البحر : كبيرها يتلع الاصغر . اي ان المال في اتجاه مستمر الى التمرکز . ولذلك فنمو التبادل والتجارة وتمرکز الثروات جعل يفرق الاكثرية من ابناء الجماعات المتوسطة ويزيلها شيئاً فشيئاً من الوجود : اي يوقعها في الرق .

وما التجارة الا القسم الثالث من اقسام العمل الاساسية .

وكانت اعمال الارقاء تزيد خطورة وشمولا ان في الزراعة او في الصناعة او في اي فرع من فروع الاشغال . فراحت الحروب تخلق —

باستمرار — هذه الأيدي المنتجة والصالحة للعمل حتى في الميدان المنزلي كما راحت حالة الارقاء تسير من سيء الى اسوأ . وظل عددهم يتعاظم حتى أصبحوا قوة لا يستهان بها . أصبحوا اكثرية خفيفة ... فأخذت تظهر لأول مرة في التاريخ السلطة المدنية ، الحكومية ، ومعها جيشها وضرائبها وسجونها وما الى ذلك . هي ليست هيئات لادارة الاعمال كالتي كانت تمثل ، منذ نظام الصيادين ، كل فئات القبيلة والتي كان دور المرأة فيها مساوياً لدور الرجل . انها سلطة من طبيعة جديدة . ليست تمثل كل فئات المجتمع وليس للمرأة دور فيها ولا في انتخابها . انها آلة ضغط طبقية . آلة رهيبة بيد الإسياد ، الاقلية المملوكة الحاكمة ، لضغط الاكثرية المملوكة الحكومة ، لضغط الارقاء وحملهم على العمل والطاعة .

وكان الارقاء محرومين كل حق . لم يكن لهم مثلاً ان يملكوا او ان يدافعوا عن أنفسهم امام الحاكم . ذلك من شأن الإسياد والاحرار وحدهم . اما هم فارقاء ، وللسيد عليهم حق الحياة والموت ، وحق بيعهم او التبادل بهم وبنسائهم واولادهم . هم اشياء ، سلع : يستطيع السيد ان يبدل الماشية برقيق او رقيقين ، او الرقيق بماشية او ماسيتين ، حسب جودة البضاعة وردائها . قلنا يبادل السيد بنسائهم واولادهم ، مع ان الارقاء كانوا محرومين حق انشاء عائلة . اذن ، بنسائهم واولادهم الذين يجيئون بصورة طبيعية ، عفوية .

وكان يحق للسيد — وبالفضائل النظام الطبقي — ان يبيع اولاده ايضاً . يبيعهم اذا غضب على احدهم او اذا افتقر ، كما كان له ان يهمل الرقيق او ان يطرده عندما يشيخ هذا ولا يعود صالحاً للعمل !
لنترك الآن — بصورة مؤقتة — الظروف الانتاجية والنضال الطبقي ينطوران ويعملان ليل نهار بل كل ساعة ودقيقة على تفسيح نظام الرق ، ولنلق نظرة على كيفية نشوء العائلة والمعتقد الديني .

تطور العائلة

لم تكن العائلة دائماً كما هي اليوم . فقد مرت بأدوار عديدة كل دور منها يطابق بخطوطه الكبرى أساساً أو شكلاً من أشكال العمل البشري أو حياة البشر الانتاجية . وكل تحول في الظروف الانتاجية — التي هي أساس كل مجتمع — يسوق معه عابجلاً أو آجلاً جل محتويات الصرح الفكري بما فيه من شرائع وسياسات وفنون وآداب وأشكال عوائل وما الى ذلك ؛ على الرغم مما لهذه الاشياء — بدورها — من تأثير على الظروف او العلاقات الانتاجية نفسها .

ان العائلة لم توجد منذ البدء . وقد رأينا ، عندما كان الناس يعيشون رحلاً وراء الاثمار من غابة نضبت الى غابة ولم يكن للعمل المنظم من اثر فيما بينهم ، كيف كان التزاوج حلقة واسعة تعم القطيع او السرب كله . تزاوج خليط لا اثر للنظام فيه ؛ كتزاوج وحوش البرية او عصافير الغابة ، كما تريد . لكن هذه الحلقة الواسعة اخذت تنقسم — في عهد الصيد البري الذي نظم اعمالهم بعض الشيء — الى حلقات اصغر ، حلقات عديدة . فنرى التزاوج الخليط الشامل يأخذ شكلاً اضيق من ذي قبل وارقى ، اي شكلاً حلقياً : حلقة من الرجال الاصدقاء والنساء الصديقات يتزاجون فيما بينهم ولا علاقة لهم بالحلقات الأخر . فيحق لكل رجل من رجال هذه الحلقة ان « يخاطب » كل امرأة فيها ، وكذلك للنساء . لكنه لم يعد يحق للرجل مخالطة بنات حلقته ، كما لم يعد يحق للامهات ان يخاطبن ابناءهن . اما ابناء هذه الحلقة وبناتها فلا يزال لهم ذلك . وخط

القربة ، طبعاً ، خط الرحم : لان الام معروفة بينما الاب غير معروف .
ثم تطور هذا التزاوج الحلقى فنع الاخوة والاخوات لام واحدة
من مخالطة بعضهم لبعض ، لكنه سمح بذلك لابناء امرأة من هذه الحلقة
وبنات امرأة ثانية من الحلقة ذاتها . ومواليد هذا النوع اسد نواً منهم
في النوع السابق . ومن هذا النوع الأخير نشأ « الجانس » : وهو شكل
العوائل الرحمة التي سادت قبيلة البرابرة الصيادين . جاء مناسباً لاتجاه
الرحل الى شيء من العمل المنظم ومن التمرکز .

الجانس — عائلة الصيادين — هو حلقة ثابتة من الاشخاص ائاثاً
وذكوراً تجمع بينهم قرابة الرحم ويتحدرون من ام « قديمة » معينة .
وكثيراً ما كان يطلق على هذه الام القديمة اسم من اسماء الحيوانات
التي كانت تتفاد بها اثناء الحمل كالظرافة والسلفاة والذئبة ... ولا
بأس فالعهد عهد الصيد البري . بل هنالك صبايا زماننا اللواتي يحملن الى
اليوم اسماء بعض الازهار والاشجار : وردة ، قرنقطة ، سروة ، ياسمين ...
فاسماؤهن هذه — ان لم تمت اليهن بصلة في كثير من الاحيان — فلعلها
تمت بصلة على الاقل الى زراعة ذلك العهد .

وهكذا كان يسمى الجانس باسم الام القديمة ، فيقال : جانس ظرافة
او ذئبة وابناء او بنات سلفاة ... لان التزاوج كان حلقياً كما رأينا
والاب غير معروف ، فيتبع الابناء والبنات جانس الام التي تحدروا منها .
وبعد ان كان مسموحاً في الحلقة التي انبثق منها الجانس ان يخالط
ابن امرأة من هذه الحلقة ابنة امرأة ثانية من الحلقة نفسها ، اصبح لا
يجوز لابناء الجانس الواحد مخالطة بنات جانسهم بل بنات جانس آخر .
اي ابناء جانس ظرافة يتزاوجون من بنات جانس سلفاة ، وابناء جانس
سلفاة من بنات جانس ظرافة او غيره ، ويؤلفون حلقة جديدة .
وكانت قبيلة الصيادين تتألف من جانسات — عائلات رحمة او

- بطون — عديدة . اما التقاليد التي كانت تسود الجانس فهذه اهمها :
- ١ — على كل جانس ان ينتخب ممثله او ممثله لادارة شؤون القبيلة . وممثل جانس ظرافة ينبغي ان يكون من ابناء او بنات جانس ظرافة . وهذا الممثل او الممثلة تنتخبه الرجال والنساء معاً في الجانس .
 - ٢ — يستطيع الجانس عند اللزوم ان يسحب ثقته من ممثله فيخلعه . وذلك بتصويت عام تقوم به نساء الجانس ورجاله . ثم يصار الى انتخاب غيره . و « مجلس القبيلة » المؤلف من ممثلي الجانسات يستطيع ايضاً خلع احد الممثلين ان لم يقم هذا بواجبه كما ينبغي .
 - ٣ — لا يجوز لابناء الجانس وبناته ان يتزاوجوا فيما بينهم مهما بعدت قرابتهم ...

- ٤ — الذين يموتون تعود اشيائهم لجانسهم .
- ٥ — اعضاء الجانس يتعاونون في شؤونهم . ويحمي الجانس اعضاءه اذا اھين احدهم او قتل : اھانة الفرد تعد موجهة الى المجموع .
- ٦ — اسرى الحرب يتبناهم الجانس ويعيشون كاحد اعضاءه . ذلك قبل توطد نظام الرق .
- ٧ — مقبرة الجانس مشتركة فيما بين اعضاءه .
- ٨ — ملكية الجانس ملكية مشتركة ...

تلك اهم تقاليد الجانس . ولم يكن فيه مال ولا قروض ولا ديون ولا ضرائب ولا آلة ضغط حكومية بيد طبقه سائدة — لانه لم يكن ثمة من طبقات ولا استثمار انسان لانسان — بل كانوا يعملون بصورة مشتركة ويستهلكون نتاج عملهم مشتركين . وكان دور المرأة في العمل الاجتماعي مساوياً لدور الرجل ، فكن ناخبات ومرشحات لمجلس القبيلة الاعلى . وبقيت الحال على هذا النحو حتى نشأ — بعد تملك الجانسان المشترك — التملك الفردي ، تملك كبير العائلة الجانسية بدأة ذي بدء ،

هذا التملك الذي راح يسجل تاريخ عبودية المرأة على الرغم من كونه
تقديماً وضرورياً لأن المرأة أمست في ظله متاعاً من امتعة الرجل السيد
أو متعة من متعاته ، تباع وتشترى .

ان نمو التملك الفردي اخذ يضيّق حلقة الزواج حتى اصبحت حلقة
تزاوج فردي: زواج الرجل بامرأة واحدة. لكنه لم يكن ثابتاً في اوائل
عهده ، بل كان ينحلّ احياناً بسرعة ويتبع الاولاد امهم . وعندما ترسخ
التملك الفردي اصبحت الزواج الفردي اثبت من ذي قبل ، واصبح الناس
يقولون : هذا ابن فلان ، ولا يقولون ابن فلانة ... واضحت العائلة
الفردية وحدة المجتمع الطبقي الاول ، وان شكلياً الى حد .

ذكرنا عدة اشكال من التي عرفها تطور العائلة تاريخ اشكالا اخرى
كتعدد الزوجات ، وتعدد الازواج ... اما اصلح تلك الاشكال واعدلها
جميعاً فهو الزواج الفردي وان يكن في تلافيفه جرثومة زنى نهشته منذ
عهده الاول نهشاً ذريعاً . ولا عجب فهو ثمرة التملك الفردي الاستثماري ،
ثمرة النظام الطبقي الاول ، نظام الرق . فهذا النظام جعل المرأة رقيقة ،
بضاعة يهينها ذووها لمن يحمل المال ... وللمسامرة - النخاسين - دور
كبير في هذا النوع من التبادل البضاعي . ولكل بضاعة سعر . كل شيء
في المجتمع الطبقي يجبرها ان تباع « نفسها » لمن معه المال ، لمن يملك
وسائل انتاج ... وهي مجبرة ان تزين جسدها بازياء لا تليق بها احياناً
كثيرة ، والا كسدت بضاعتها . وليس بوسعي ان استني اليوم من
النساء الا اللواتي في قلوبهن فضيلة الثورة على الذل والأباطيل .

الزواج في المجتمع الطبقي مبني على اساس طبقي . كل يتزوج -
عادة - من طبقته . في الطبقات المالكة وسائل الانتاج او الموسرة
تلعب الثروة غالباً الدور الاول في الزواج وليس الحب : وهذا عش
قام من اعشاش الزنى . وفي الطبقات المحرومة ، كطبقة الارقاء وكالفلاحين

بما فيهم مستعدون النظام الاقطاعي وطبقة العمال في المجتمع الرأسمالي ،
يلعب الحب الدور الاول في الزواج وليس الثروة ، اذ لا وجود لها .
الكن الحاجة كثيراً ما تصارع هذا الحب فيما بعد وتنهكه وتمرغه . ومعلوم
أن الحاجة وليدة تركز الثروات وان مصائب الناس ليست من وراء
الغيم : « يا رب لا تجعلني غنياً ينساك ولا فقيراً يكفر بك ! »

ولن نتكلم - في نظام الرق والاقطاعية الخ - عن افتراس الاسياد
لوفقاتهم وفلاحاتهم الجميلات ، ولا نحن بمتكلمين ايضاً - وبالسخرية
التاريخ وانتقامه - عن ولوع السيدات بالفلاحين او بالارقاء المقتولي
العضلات الذين جيء بهم من كل حذب وصوب الى روما مثلاً والذين
تحرروا فيما بعد واصبح لهم الحق ان يتزوجوا من بنات الذئبة ، من
حرائر روما ، ولا عن « سوق العاطلات » وفيها فئة من ضحايا المجتمع الطبقي ،
تلك السوق التي يعود اصلها الى معابد الاقدمين ايام كانت الصبايا الراقصات
يستسلمن في الهياكل لقاء اجور تدخل صناديق المعبد الوثني الذي يتذوقن
اللذات فيه ... بل نرجو من الناصحين على منوال المرحومين « الدوتشي »
و « الهر » ان يخبرونا من اي عرق هم ومن اي لقاح !

ان العائلة في النظام الطبقي - وان تكن بمظهرها مبنية على الزواج
الفردى - فكثيراً ما ترينا اولاداً كازهار الحقول اشكالا والواناً ... اولاداً
لا يسلمهم « ابوهم » شيئاً من ثروته ليستغلوا لانه لا يثق باستقامتهم - وهو
حق في كثير من الاحيان - فيتمنون والحالة هذه موت ابهم ليروثه
ويتخلصوا من شكله ، شكله الذي ما اكثر ما تتسلى عنه السيدة
الارستقراطية ، امهم ، بكلب وثير لعوب .

وقاكم الله ايها الناس من شرور الثروة . فاذا شئتم ان تستريحوا في هذه
الحياة اياكم ان تمعنوا باقتناء الفضة والذهب . اي تشبهوا بالسيد المسيح او
بي ، فليس من كبير فرق بيننا من هذه الناحية !

اجل ، لن تزول هذه المهازل ولن يتلاشى الزنى من تلافيف الزواج
الفردى على الرغم من « الاقفال الحديدية » التي استعملها فرسان القرون
الوسطى الا بزوال اساسه او قطبي اساسه : التمرکز والحاجة . اي لا
يزول الزنى من الزواج الفردى - ولونسبيا - الا بعد ان يزول الاستثمار
من التملك الفردى . يزول الزنى وتبقى العائلة الفردية صحيحة الاساس
واقية جميلة .

عندئذ لن ترى عينانا كاهنا يكلل فتى على عجوز درديس قائلاً : « ما
ازوجه الله لا يفرقه الانسان ! »

منشأ المعتقد الديني

ونظوره

رأينا كيف كانت اشكال التزاوج تنطبق بخطوطها الكبرى على اشكال العمل التي عرفها الاقدمون ، او على اشكال التملك اذا شئت . فالرحل الذين عاشوا على الاثمار ولا اثر للعمل المنظم فيما بينهم كانت تزاوجهم خليطاً كحيوانات البرية : كل الثمار ثمارهم . والصيادون الذين عاشوا على عمل مشترك منظم بمقدار اصبح تزاوجهم حلقات مستقلة الواحدة عن الاخرى وفيها شيء من الانتظام ليس بقليل بالنسبة لما قبل . والعمل المبني على التملك الفردي قادهم الى الزواج الفردي .

كل تطور يطرأ على اساس العمل الانتاجي — ولا سيما على العلاقات الانتاجية — يحدث عاجلاً او آجلاً تطوراً متفاعلاً بينه وبين الميادين الفكري والاجتماعي . رأينا ذلك في لمحتنا عن العائلة وسنراه في كلمتنا عن نشأة المعتقد الديني .

لم تكن المعتقدات « الدينية » موجودة منذ البدء . لكنها كانت — منذ نشأتها — مظهرأ لعدم فهم الانسان للظواهر الطبيعية ولعجزه تجاه قوى الطبيعة . فجعل يتخذ آلهته من الاشياء ومن الحيوانات والناس . وكلما فهم الانسان ظاهرة من هذه الظواهر او تغلب على قوة من هذه القوى كان يموت اله من آلهته .

لم يكن دين البشر دائماً كما هو اليوم . بل لم يكن له من اثر في حياتهم الوحشية ايام عاشوا على ثمار الغابات وما قبل . فلما بدأوا يعملون ،

يشتغلون لايجاد معيشتهم ، في صيد الاسماك او بعض الحيوانات كالزبازق
 او التي يدرأونها عن انفسهم ، او قطع بعض الشجيرات او الاغصان لصنع
 حرايهم ، اخذت اعمالهم هذه - مع التكرار - تؤثر بهم ، تضرب دماغهم
 وتثير تفكيرهم ؛ وليس كالعمل ما يثير التفكير ويغذيه . رأوا مثلاً كيف
 كانت تلك الحيوانات تركز مثلهم في الفضاء او في الماء ثم هي تسقط لا
 حراك بها وشيء يخرج احياناً منها وهو مثلاً دمها . رأوا كيف كان ذلك
 الغصن او تلك الشجيرة نامية ظليلاً ثم هي تدبل وتيبس غب فصلها عن
 امها الارض . فاستمرار امثال الحوادث هذه الواقعية الناجمة عن عملهم
 وغير المفهومة وقتذاك لديهم كان يرسم في دماغهم ويجعلهم يفكرون ؛
 يفكرون بذواتهم ايضاً ، بداخلهم ، ويتساءلون : لماذا لم يبق في وسع
 هذا الحيوان مثلاً ان يقوم ويهرب ؟ لماذا غط في نوم عميق ؟ وهم كذلك
 يغطون في نوم عميق ويرون في نومهم انهم يقومون باعمال عديدة يستدعيها صيد
 السمك ومكافحة الحيوانات في الغاب واضرام النار للتدفئة والشئ . حياتهم
 الواقعية ترسم في دماغهم وهم نيام . لكنهم لا يفهمون ذلك ، لا يفهمون
 الجهاز العصبي ، بل جعلوا يظنون ان فيهم ، في داخلهم ، شيئاً آخر - فيهم
 « آخر » - يخرج منهم اثناء رقادهم ويقوم بالاعمال التي يقومون هم بها :
 فهو بحاجة مثلهم الى الاكل والشرب واللذة ..! ولماذا لا يكون لحيوانات
 البرية والاسماك والاشجار « آخر » ؟ لا محالة الا ان يكون لكل شيء في
 الطبيعة آخر ، كما لهم . آخر يخرج الى العمل اثناء نومهم ونوم الكائنات .
 ثم - بعد ذلك - لماذا لا يشبه هذا « الآخر » النسيم الذي يحسون به
 ولا يستطيعون ان ينظروه او ان يقبضوا عليه . بل لماذا لا تكون هذه
 النسيمات اسراباً من « الآخرين » او من الاطياف تذهب مثلهم الى العمل
 بصورة اجمالية ؟

ان العمل - صراعهم مع الطبيعة ، مع الخارج - جعلهم يفكرون

بدواهم ، بداخلهم . لكنهم لن يفهموا داخلهم ما لم يفهموا خارجهم .
ولن يفهموا ما وراء الطبيعة ان لم يفهموا الطبيعة .

قلنا كل شيء له « آخر » وهذا الآخر يشبه النسمة . اذن لكل شيء
نسمه او روح . ولم يكن للروح وقتذاك هذا المعنى الذي زينها به المجتمع
الطبيقي . بل كان معناها النسمة او الآخر او الطيف . وكانت تعيش
حياة واقعية كما يعيشون هم في غاباتهم . تعمل كما يعملون . فاذا ناموا
ساعتين تسرح هي ساعتين . واذا ناموا طول الليل تسرح ايضاً طول
الليل . واذا ناموا النوم الطويل تذهب الى اعمالها مدة طويلة ... وهذا
ليس خلودها بعد . فخلودها لم يكن بهم احداً في تلك المرحلة . اما
الاعتقاد بخلود الروح فقد ساد بين قسم من الناس في النظام الطبقي
الاول كضرورة ذات فوائد اجتماعية طبقية . وقد اعتقدوا « عهد ذاك »
بخلود نظام الرق ايضاً ... وكانت فكرة خلود الروح تقع على الارقاء
ليس كتعزية كما هي في ايماننا بل كشيء مزعج ، مخيف ، تطول معه
مشقاتهم وآلامهم .

في الصيد البري كانت فئة من الكهول الصيادين تمتاز بما لديهم من
خبرة بجمل الطرائد ، فلا تنقل تجاربها الى الشبان الا في احتفالات خاصة .
وكثيراً ما يكون هؤلاء الكهول حصة ممتازة من الصيد يفتخر بها الشبان
لديهم . وبين الحيوانات نفسها فئة قوية صوالة وفئة عادية لا تحشى
صولتها . فلماذا لا يكون ايضاً لاولئك الكهول المميزين بخبرتهم وبأسهم
ولهذه الفئات الصوالة من الحيوانات « آخرون » او ارواح اقوى من
غيرها وتحشى صولتها وينبغي استرضاؤها كما يوجد ارواح اخرى عادية
سهلة الانقياد ؟

المميزون اقلية لكنها قوية . وكذلك الارواح المرهوبة الجانب والتي
سيصبح بعضها آلهة « الميتولوجيات » ثم يتطور فيما بعد ، مع تطور دور

الرجل ، الى آلهة جبارة في نظام الرق ترتجف الارض لمو غضبهم
وتتدلدل كعرزال الناطور .

وهل للسحر غير هذه الاسس ؟ انه يرتكز - في مجامع السحرة -
على امر الارواح العادية ونهيها واسترضاء الارواح الصوالة والخوف من
حمو غضبها .

وكلما ترعرع التملك الفردي الاستثماري والطبقات ترعرعت هذه
المعتقدات واصبحت ديانات جذور اكثرها في حقل السحر وعبادة الحيوان .
لكن الآلهة في اواخر عهد الصيد البري وتربية المواشي ورعيها كانت
لا تزال على الارض . واذا ارتفعت فالى رؤوس الجبال . كانت من
الحيوانات ومن بعض الاشياء كالشجر والنار ومن بعض الناس ، اثنائاً
وذكوراً . عبادة الاشخاص قديمة ! وعندما اصبحت الزراعة الفرع
الانتاجي الارجح وعليه تتوقف بحبوتهم او جوعهم الى حد كبير
- وحياة المزروعات وموتها يتعلقان بدورهما ، بالطقس بالجو - شرعت
بعض عبادات البشر تنتقل لاول مرة الى ذلك الجو ، فعبدوا فيما عبده
او الهوه : الشمس والكواكب والرعد والرياح ، وقدموا لها القرابين
والذبائح حتى من ابنائهم وبناتهم ، والا تغضب الآلهة الجوية وتدمر
مزرعاتهم وتأمر الانهر والعواصف فتتلفات مزججة تبده سائر انعامهم .

ولما جعل المجتمع الطبقي ينتقل من مرحلته التقدمية الى المرحلة
الرجعية ، مرحلة الاستثمار الضاري ، لم تكتف الطبقة السائدة بما لديها من
سلطة او قوة حكومية تضغط بها الاكثوية الساحقة الحكومة لتظل هذه
تكدرح في خدمة الاسياد - فالكادحون المظلومون يتمرّدون ويشورون
- بل رأت ان تستخدم قوة اخرى ، قوة معنوية ، سكراتها وغيوباتها
عجيبة بتخدير القلوب واستعباد البصائر ، فيها الترغيب الساحر بما « فوق »
الارض والتهويل الراعب بما « تحتها » : وهذه القوة هي « قوة الكهنة »

— الاقدمين طبعاً — وما في يدهم من سلطان لدى الارواح الصائلة
وغير الصائلة .

وبعد ان كانت « سماء » الصيادين هنا ، على الارض ، تعيش فيها
الاطياف او الارواح حياة واقعية — حياة عمل فاستراحة ولذة كحياتهم
اليومية ، اذ تقضي اسراب تلك الارواح الى الصيد مثلاً بصورة اجمالية
وتأكل وتشرب وتسرح وتمرح — نقلها عهد الزراعة الى مناطق غائمة
الابعاد في الجو . وبعد ان كانت سماؤهم تلك مجانية لجميع الناس دونما استثناء
اصبحت في تلك المرحلة من النظام الطبقي الاول لا ينالها الناس الا
بالاستحقاق . ولها حراس وحجاب ولا يدخلها الا الذين آمنوا به — هذا
الطور الساموي الجديد وكان ساو كهم على الارض صالحاً . اي الذين
يخدمون اسيادهم بجد ونشاط واخلاص وطاعة ... ولا يتمرّدون عليهم
ولا على سلطتهم : لان السلطة كانت من الله قبل ان كانت المرحوم
« بوسويه » ... ولا يقتل بعضهم بعضاً : لان الحسارة تقع على السيد اذ
يخسر رقيقه او بضاعة تنتج له بضائع ، لا سيما اذا وقع القتل عليه هو نفسه .
ولا يسرقون : فيخسر السيد ، لان الارقاء وما في يدهم ملك له ...
مثل هؤلاء الابرار كانوا يستحقون النعيم ، بعد الموت !

وان لم يؤمنوا ولم يطيعوا ، فماذا تكون عاقبتهم ؟ على الارض نعرفها .
ولكن ، ما وراء الهضبة ؟ شيء جديد لم يسمع به مجتمع الصيادين ، شيء
جد ضروري له مجتمع الطبقي الاول : وراء الهضبة جهنم ... النار الابدية
التي لا تطفأ ، الافاعي الكريهة الشكل التي تدخل من الفم وتقرؤوسها
من ثقبى الانف والعينين والاذنين وتمعن نهشاً بالسرة والثديين ... وانت
يا امرأة السيد ، هذا ما يحل بك اما اشتبهت رقيقك الساحر العينين .
وما كان اشبه آلهة الميتولوجيا المتطورة وما حولها من حاشيات ومن
جنود غير منظورين لا يقعون دائماً تحت الحس بملوك الارض وحاشياتهم

وبوليسم او تحرهم الذي قها يقع هو ايضاً تحت حس . وما اشبه تفاوت
الدرجات بين سكان سماء النظام الطبقي الاول بتفاوت درجات الناس
وطبقاتهم فيه . وما اشبه جهنم بالسجون : فهناك توجد الآلهة بغضبها وهنا
الملوك - نحن في نظام الرق - باستبدادها ومظالمها . وباختصار : ما
« كان » اشبه السماء بالارض !

ايحوز ان تبقى السماء الى الابد على هذا الشكل المتأخر ؟ كلا ،
فسرعان ما جاء اللاهوت ورقاها واعطاها الشكل النهائي .
وكانت المرأة قديماً تجلس في مصاف الآلهة . كان منهن الالهات : الالهة
الجمال ، والالهة الصيد ، والالهة الحكمة وهلم جرا . ذلك عندما كان
دورها في العمل مساوياً لدور الرجل . حتى كليونبطرا المغرية الشهيرة
ادعت في زمانها ، امس ، انها ليست من سلالة البشر بل من اعراق الالهة .
ادعاء كان للشهيدين والشهيرات في ذلك العهد لا يزال زياً من الازياء . . .
ولكن عندما امسى دور المرأة في العمل - على الارض - في الدرجة
الثانية ، نزلت عن عرشها السماوي وامسى دورها في الدرجة الثانية
« فوق » ايضاً ، كما هو تحت ، على الارض : قديسة او ذات شفاعة . ولم
يبق في السماء الالهات - ويا خيبة آمال الشعراء - بل آلهة ذكور . . .

وما الاساطير التي سبقت قصة آدم وحواء ، وكانت بمعناها ، الا من
نتاج تلك المرحلة التي اخذ فيها دور الرجل يتغلب على دور المرأة . وعلى
عائق المغلوب تقع سائر الذنوب : فامست سبباً لمسا كل البشرية جمعاء ،
وامست ضلعاً مسحوبة من خاصرة الرجل بعد ان كان الرجل كله
مسحوباً من خاصرتها . . . وحتى كهنة ذلك الزمن جعلوا يترفعون عنها
وينذرون العفة . وكم من مرة اختلفوا فيما اذا كان لها روح . . . واخيراً
قرروا ان يكون لها ! والذي تكرموا به على روحها اكلوه من
عقلها . وبقيت المسكينة « بربع عقل » الى اليوم ، بسلامة عقول الرجال .

نضال الطبقات

بزغزع نظام الرق

لنعد الى نظام الرق الذي تركناه بعد ان ظهرت طبقاته الرئيسيتان ، وبعد ان ترعرعت فيه السلطة الحكومية ، آلة الضغط المدافعة عن مصالح الناس — اي الاسياد — ضد الارقاء والجماعات المتوسطة الحال ، وبعد ان عرفنا شيئاً عن الاستئثار والاستعباد الوحشين اللذين قاستهما طبقة الارقاء وحلفاؤها ابناء الجماعات المتوسطة الذين كانوا يقعون في الفقر من جراء تركز الثروات وفي الرق لعجزهم عن دفع ديونهم ، وبعد ان أخذ النضال الطبقي يذر قرنيه . ولنأخذ روما — التاريخ المكتوب كمثال لاستئناف كلامنا .

كانت روما باسطة سلطانها الاستيلائي على اكثر البلدان الواقعة في حوض البحر المتوسط ، تمنع في نهبا واستعباد سكانها وسوق الكثيرين منهم ارقاء الى داخلها . وكانت تقذف بالمئات والالوف من هؤلاء الارقاء — سواء أمن ابناءها كانوا ام من الغرباء — الى شق الطرق الحربية وبناء الجسور والقلاع والهاكل والمراكب البحرية وصنع الاسلحة وما الى ذلك . انها منهمكة بحروب مستمرة مع بلدان لم تخضع بعد لثيورها كالبرابرة الجرمان

هذا من جهة . ومن جهة ثانية فقد كان فن العمل الزراعي باقياً على حاله — على مستواه القديم — بل راح ينحط يوماً بعد يوم . وكثير من

الأراضي أمسى مهملاً من جراء تشغيل القسم الهائل من الأرقاء في شق الطرق الحربية وغيرها . والعمل اليدوي في المدينة أخذ يتلاشى ، والأحرار يحتقرون العمل ... فقلت البضائع ، واضمحلت التجارة أو كادت ، وساد الارتقاء والجحود سائر ميادين العمل المنتج . وجنهرات الأرقاء الذين تشغلهم في الزراعة راحت ترهقهم أكثر فأكثر لكي يسدوا حاجات الظروف الحربية والاجتماعية المتعاضمة ؛ ولكن هيهات أن يفيدوا ذلك .

إن هذا الجحود الاقتصادي في الداخل قد حدا روما إلى تشديد الضغط والاستثمار خصوصاً في البلدان التي تحت سيطرتها : فكانت النتيجة ازدياد النضال الطبقي والاستقلالي احتداماً في الداخل والخارج . وراحت التمردات والثورات تتفجر بين الحين والحين هنا وهناك ، ولا سيما تلك التي اصلاها الرقيق اليوناني « سبارتاكوس » مناضلاً أسياة اليونان وأسياد روما معاً .

ويجمل بنا أن نذكر أهم هذه التناقضات التي ظلت تترعرع عدة أجيال في قلب الامبراطورية الرومانية حتى أدت إلى تصديع أركانها :
١ - التناقضات الداخلية : بين أسياة روما وأرقائها ، يدعم هؤلاء حلفاءهم من « أحرار » الجماعات المتوسطة الحال .

وهناك التناقضات بين أسياة روما أنفسهم ، والدسائس والاعتبالات التي كان يدبرها بعضهم لبعض .

٢ - التناقضات الخارجية : بين أسياة روما و « أرقائهم » في البلدان الواقعة تحت النير الروماني والتي تريد الخلاص من هذا النير الضاري . ونذكر في هذه المناسبة نضالات لبوءتي شرقنا : كليوبطرا وزينب التدمرية .

وهناك التناقض بين أسياة روما وقوادهم الذين في الخارج والطامحين

للاستئثار بالحكم والسيطرة وبنهب البلدان الخاضعة .
نضال بين اسياد روما وارقاتها في الداخل والخارج . فارقاء روما
والبلدان الخاضعة عدوهم واحد ، هو اسياد روما . كل فشل للارقاء في
الداخل هو في الوقت نفسه فشل للبلدان الخاضعة . وكل فشل لتلقاه هذه
هو فشل لارقاء روما في الداخل ايضاً . وكل انتصار لفريق من هذين
الحليفين الطبيعيين هو انتصار للآخر أشاء ام أبى . فالاسياد الرومان لم
يستطيعوا استعباد البلدان الاخرى على هذا الشكل الا عندما اوقعوا
قسماً كبيراً من ابناء روما انفسهم - نساء ورجالاً - في حالة الرق :
« الشعب الذي يستعبد شعباً آخر لا يمكن ان يكون هو حراً » .

بذور الديمقراطية

نمو في صدوع نظام الرق

قلنا ان طرائق الانتاج الزراعي باقية على مستواها القديم بينما اصبحت ظروف روما بحاجة قصوى الى فن انتاجي جديد يساعدها على سد حاجاتها المتعاظمة . وقلنا ان الاستثمارات الزراعية الكبرى المبنيه على عمل ارقاء مرهقين يشتغلون لغيرهم امست عقيمة بالنسبة لحاجات الظروف الجديدة ، وان الكثير من الاراضي بات مهجلاً ، وان العمل اليدوي في المدينة يتلاشى وكذلك التجارة واسواقها ، وان الاحرار الرومان عامة يقدسون الحرب والنهب ويمتقرون العمل ... فاصبح على الانتاج القديم العقيم ان يزول ويحل محله طرائق انتاج جديد ارقى ، ومكان استرقاق الانسان للانسان حرية بالنسبة لظروفها ارقى هي ايضاً .

وكان ارقاء روما - بفضل هذه الظروف وبفضل ثوراتهم وثورات البلدان الاخرى - يتحررون شيئاً فشيئاً وينتزعون حقوقهم مع الوقت الواحد تلو الآخر . فحاول الاسياد ان يثبتوا سلطتهم ببعض اصلاحات اضطرتهم اليها تلك الظروف المضطربة فجعلوا يوسعون بعض الشيء حركة تحرير ارقائهم : يسلمونهم او يملكونهم قطعاً من الارض . فاصبح بعض هؤلاء اقناناً لا يحق للسيد ان يبيعهم مستقلين عن الارض بل تبعاً لارضه لانهم يشتغلون عليها ولهم حق بشيء من حاصلها . كما اصبح بعضهم احراراً يمتلكون ، او يملكونهم السيد قطعة ارض على حدود الامبراطورية اذ قد

يدخل عدو خارجي فيلقى في وجهه ملاكين يذودون عن ارضهم بالارواح
لا ارقاء ليس يهمهم الامر . ومع ذلك فقد بقي قسم كبير منهم ارقاء .
وهكذا لم يعد للسيد - مع الايام - حق الحياة والموت على الرقيق .
ولم يبق هذا في النهاية رقيقاً بل اصبح حراً ، له حق التملك والدفاع عن
نفسه في المحاكم وتأليف عائلة وما الى ذلك ، اي اصبحت جماهير الارقاء
المجاويين من كل بلاد الى داخل روما - وحتى بعض امبراطرتها كان من
اصل اجنبي ، لبناني او سوري مثلاً - يتزوجون من حرائر الرومات .
ولا شك ان حرائر الرومان يلدن : ولولا ذلك لما عرفنا اهمية النظرية
المرتكزة على العرق ووحدۃ الدم !

والتطور حتي لا يستشير احداً ، لا الاسياد ولا الارقاء . يسير في
مصلحة فريق دون فريق على الرغم من ارادة الطرفين ومن امكان
تأثيرهما الموقت ... لذلك كانت محاولات الاسياد لتثبيت سيطرتهم تذهب
ادراج الرياح . والارقاء يتحررون رويداً رويداً (على الرغم من الذين
حاروا ماذا يصنعون بالحرية واين يشتغلون) ويمتلكون قطعاً من الارض :
اي يصبحون فلاحين !

ولم يكن سبب تحريرهم اخلاقياً او سياسياً - كحاجة السيد الى
احرار يصوتون له ، اذ ان للحر وحده حق التصويت - بل كان سببه
الجوهري ضرورة اقتصادية ادى اليها تطور نظام الرق ، تطوره لدرجة
التفسخ والحوول دون تقدم الانتاج ، فأصبح من اللازم الالازب تغيير
العلاقات الانتاجية اي نيل الرقيق المملوك - الذي لا يعمل لنفسه -
حق التملك . وهذا غير ممكن الا اذا تحرر : والحرية ليست في الورقة
التي يلقها الرقيق في صندوق الاقتراع ، انها لم تكن إلا على رؤوس
حراهم .

وهذا ما نقصد عندما نقول : الثورة هي التي تحررهم او تعمل

لتحريرهم . اما الثروة بجد ذاتها - وان تركت أثراً - فهي انتحار
موقت للطبقات او للشعوب المظلومة الا اذا نضجت ظروفها . وكم اصرى
ارقاء روما من ثورة قبل اوانها في الداخل او في الخارج ، فأغرقتهم
روما بدمائهم . و « من استعجل الشيء قبل اوانه عوقب بحرمانه ! »
لم تنهدم الامبراطورية الرومانية بعد ، لكنها كانت سائرة سيراً
حثيثاً الى الانهيار تحت ضربات النضال الطبقي . اما الذي عجل هذا
الانهيار فهو غزوات البرابرة الجرمان ؛ وكانت روما في حرب معهم منذ
قرون لانخضاع بلادهم واسترقاقها ونهبها .
واخيراً انهدمت تلك الامبراطورية الضخمة امام هجمات الارقاء من
« الداخل والخارج » وانفسح المجال لانبثاق المجتمع الاقطاعي ، المبني
اقتصادياً على الانتاج المتوسط والصغير في القرية والمدينة .

المجتمع القطاعي

هو المجتمع الثالث او ثاني مجتمع طبقي . نشأ في صدوع المجتمع الذي سبقه وظل يتزعزع حتى اجتاحه بثورة او بثورات .

وكان للقائد العسكري - الجرمانى مثلاً ، عندما غزوا روما - حصة الاسد من الاراضي التي يستولي عليها جيشه . فيوزع قسمًا على القادة الاخرين ، حسب درجاتهم العسكرية ، وعلى مقربيه .

فمن جهة ، اصبح لدينا في مستهل العهد الاقطاعي قائد اعلى - او ملك - وحاشيته المؤلفة من الاشراف ومن كبار الاكليروس وكذلك من بقايا النظام المهدوم : لا بأس هؤلاء الاخيرين ما دامت الاقطاعية ، على كل حال ، نظاماً طبقياً هي ايضاً .

واصبح لدينا ، من جهة ثانية ، في القرية : جماهير الفلاحين . وفي المدينة : جمهرة من الصانع والمشتغلين في اعمال حرفيه متنوعة .

وكانت تلك المرحلة - منذ انهيار الامبراطورية الرومانية في اواخر القرن الخامس الى ظهور الاقطاعية حوالي القرن التاسع - مليئة بالقلقل والحروب ، مما اضطر كثيرين من الاقنان الذين صاروا فلاحين ومن الفلاحين الصغار والمتوسطين ان يضعوا قطعة ارضهم تحت حماية احد الاقوياء . فيصبح هؤلاء الاقوياء اصحاب تلك الاراضي ، تاركين لاصحابها الاصليين حق استغلالها مدى الحياة فقط . غير انه لم يكن يحق للسيد بيع قطعة الارض تلك . لا يحق له الا بيع ارضه الواسعة اذا شاء . اجل اصبح لدينا طبقة اسياء اصحاب اقطاعات ضخمه من الارض ،

وفلاحون يعملون في اراض متوسطة او صغيرة هي ملك لهم ، بيد ان عليهم تجاه اسبادهم واجبات اقطاعية سئلم ببعضها في طريقنا .
وكان هذا النظام لمرحلة ما تقدماً وضرورياً لاهياء الاراضي التي اهملت إبان انحطاط النظام السابق ولتطوير شتى وسائل العمل وادواته .
ان انتاج النظام الاقطاعي - بشكله العام - انتاج طبيعي ، اي للاستهلاك : لم يكن المجال منفسحاً فيه بعد للانتاج البضاعي - الذي غايته التبادل - لان التجارة واسواقها ، ما عدا الاتجار بالكماليات ، قد عراها التلاشي منذ مرحلة الانحطاط في نظام الرق . وكان النظام الاقطاعي نظام الانتاج المتوسط في القرية . ثم اخذ ينمو في المدينة الانتاج الحرفي المتوسط ايضاً . والقرية اذ ذاك سيدة المدينة . وكم جاهدت هذه للتحرر من سيطرة سيدتها : وبعد نضال طويل النفس تمتعت بشيء من الاستقلال الذاتي .

اما استثمار الاقطاعي للفلاح في اوائل هذا النظام فكان على عدة اشكال ، منها : أن يشتغل الفلاح على قطعة ارضه المتوسطة او الصغيرة قسماً معيناً من ايام الاسبوع ، والقسم الثاني على ارض السيد مجاناً . هو حق من الحقوق الاقطاعية او واجب على الفلاح تجاه السيد : واجب السخرة ! لكن الحالة لم تبق على هذا الشكل . فعندما رأى السيد أن ارض الفلاح يعتنى بها اكثر من ارضه وضع ارضه ايضاً تحت تصرف الفلاح ... اي بدأ يضع الفلاح تحت تصرفه على ان يقيم هذا ارض السيد الاقطاعي لقاء جزء معين - ضئيل - يأخذه من الحاصلات والباقي يقدمه لسيدة . وكانت البلاد نفسها - كل بلاد - مقسمة الى مناطق اقطاعية مستقلة . وكل اقطاعي « ملك » في منطقته وعلى ارضه الضخمة . لكل جيشه الخاص او عصابته . هي للتعدي ساعة يشاء . ولكل سيد مكائيله واوزانه ونقده ...

لكن التبادل ، بعد ان كان ذا طابع محلي محدود يجري بين المدينة والقرى المجاورة لها وليس بين مختلف اقطار البلاد الواحدة ، اخذ ينتعش وينمو بنمو الانتاج الحرفي في المدينة . لذلك وجب بنظر الاسياد تقييد هذا الانتاج بقيود شديدة منعاً للمزاحمت ولهجرة الفلاحين الفقراء من القرية الى المدينة . واوضح شكل لهذا التقييد لجان الحرف التي هي - في المدينة - جزء متمم لاقطاعية القرية .

تألفت لجان الحرف من معلمين - ارباب كار - ومن تلامذة او صناع . ولا يصح التلميذ معلماً الا بعد ان يخدم مدة غير قصيرة وبعد ان يقدم تحفة فنية من صنع يده للمعلم ، مع شتى الترضيات . اما ابناء المعلمين فليسوا بحاجة الى مثل هذه المتاعب . ثم اصبحت الصيرورة معلماً صعبة جداً ومتعلقة بموت احد المعلمين .

ثم لا يحق لذي حرفة ان يتعاطى حرفة غيره ، كأن يقوم الخياط احياناً بعمل الرفءاء ، اي يرفو الثياب العتيقة . فالمشاجرات والدعاوى التي نشبت في فرنسا مثلاً بين الرّفّائين والخياطين مشهورة ، وقد دامت منذ اوائل القرن السادس عشر الى اواخر القرن الثامن عشر .

وكانت مجالس لجان الحرف توجب على الحرفيين ان يتقيدوا في انتاجهم الحرفي بنوع الاشياء المصنوعة او المنتجات وبكميتها ولونها وقياسها من طول وعرض الخ . ومن خالف احد هذه الشروط فله الولايات ، نصيبه القصاص الوحشي ونصيب مصنوعاته النهب او الحريق . وعلى الرغم من ذلك فقد كان التبادل ينمو ويتنفس - وان برهنة واحدة وبصعوبة - وتنمو معه التجارة وطبقة من التجار .

وكان التجار يذوقون الامرّين اثناء مرور قوافلهم في مناطق الاسياد الاقطاعيين لما يلحق بهم من ضرائب هؤلاء وتعديات عصاباتهم المنظمة وغير المنظمة . ليس من الافضل ان تكون البلاد موحدة الاجزاء ؟

يجب البدء اذن باستغلال الخصومات الناشئة بين الاقطاعيين انفسهم ،
لضعافهم والتوصل الى هدم استقلال مناطقهم .

التجار يقولون : نريد بلاداً موحدة الاسواق . ويصيح الكتّاب
والشعراء : نريده وطناً موحد الاشواق ! شيء بديع : فالفريقان لا
يؤمنان ان ليس بالامكان افضل مما كان ...

لم يكن التجار وحدهم في استياء من استبداد الاقطاعيين . ان
كابوساً عتيقاً يذبح بكسكه على صدور الفلاحين في القرى ، وعلى اكتاف
الصناع والحرفيين بسبب تلك اللجان الخائفة بقيودها . لكن الفلاحين
كانوا يذوقون آلام الشهداء ، مادياً ومعنوياً .

ان الفلاح وامراته وبناته وابناؤه ودوابه يكسحون طوال السنة
لقاء جزء ضئيل من ثمرات اتعابهم . جزء ضئيل لكبار الاكليروس ايضاً
حصة فيه اسمها العشر . ولهم كذلك غير العشر . لهم اراضيهم الضخمة
واستثمار الفلاحين ونسائهم وبناتهم وابنائهم فيها . والا فكيف يوطدون
ملكوت الله على الارض ؟ وماذا يحل بالشعب فيما لو زالت السلطة او
الطبقة الاقطاعية وامتيازاتها ؟ اما يفهم الشعب — وان لم يكن موحد
المناطق بعد — ان خيرات هذه الدنيا زائلة وان ابنائه اذا تعبوا
واضطهدوا وجاعوا وعطشوا وصبروا ولم «يحسدوا» ذوي النعمة فطوبى
لهم لانهم يرثون بذلك ملكوت السماء ؟ ولا بأس اذا شيدوا قصور اسيادهم
وزينوا جدرانها بالنقوش والرسوم الجميلة وساحاتها بالازهار البسامة
والاشجار الظليلة واعتنوا ببجيرة القصر الضاحكة التموّجات ، بل لا بأس
ان يسكنوا هم الاكواخ الحقيمة القذرة ، فالسيد الرب ولد في مغارة
وعاش حياته فقيراً معذباً ولم يكن له حجر يسند اليه رأسه ...

هكذا كان كبار الاكليروس « يفهمون » تعاليم الانجيل .

يجب ان يكسح الفلاح وان تكسح امراته وان يتقدم مع دوابه

وأولاده للسخرة — فهي من حقوق السيد عليه — وان لا يطحن حبوبه او يخبز خبزه او يعصر عنبه او زيتونه الا في مطاحن السيد وافرانه ومعاصره وان يخضع للاجور التي يفرضها هذا عليه ، وان يقضي الكثير من ليلاليه وافراده عائلته ، منتشرين على ضفاف بحيرة القصر ، يلوّحون بالمشاعيل — وزيتها على حسابهم — لتسكت الضفادع وينام سكان القصور نوماً هائلاً .

وهذا ليس كل شيء : ينبغي على امرأة الفلاح او ابنته ان تقضي الليلة الاولى من زفافها عند السيد الاقطاعي لا عند زوجها ... هذا اسمه : حق اول ليلة . والويل لمن يتمرد على السلطة ، فهو انما يتمرد على الله !

التطور لا يقف عند حد : بل اصبح على الفلاح ان يدفع ضريبة نقدية للحكومة الاقطاعية الجديدة ، اذ ان الاقطاعيين ما لبثوا ان تبادوا — من جراء الصراع الناشب فيما بينهم من جهة ، وبينهم وبين التجار والفلاحين من جهة ثانية — الى ايجاد حكومة مركزية مطاعة تدفع عن كياناتهم شبح هول محتمل الوقوع . فأوجدوا تلك الحكومة وشكلوا من فرقهم العسكرية المبعثرة في المناطق جيشاً موحداً وضعوه تحت تصرف حكومتهم الاقطاعية المركزية .

ولم يكف الفلاح بلاء انه يدفع للحكومة الجديدة ضريبة نقدية وانه يقدم عند انصرام المواسم حاصلات الارض لسيدته وليس له هو منها شيء يذكر بل امسى مجبراً ان يحمل هذه الحاصلات — هو او دابته — وينزل بها الى حيث يبيعها ويرجع الى السيد حاملاً له النقد صافياً لا غبار عليه : وهذه واحدة من بذور الرأسمالية تنمو في قلب الاقطاعية ، اذ ان هذه العملية جعلت تساعد على توسيع السوق التجارية . وراح الفلاح يقع تحت رحمة المرابي لانه يستدين منه بانتظار المواسم ، كما راحت ارض قسم من

الفلاحين الذين لا يزالون يملكون ارضاً تنتقل رويداً رويداً الى هذا الطاغية الجديد .

وهذه ليست الصفحة الاخيرة من صفحات آلامهم : فولوع الاسياد بوسائل الزينة وشراء الاشياء الكمالية وغير الكمالية التي كانت تتطور يوماً بعد يوم دفعهم الى تشديد الخناق الاستثمائي على الفلاحين اكثر فأكثر ، بما جعل هجرة هؤلاء تتسع . انهم كانوا يهربون من تزايد البؤس والضغط في القرية ويتدفقون على المدينة المتمتعة بحرية امدى ! فزاد التضيق على جان الحرف من جهة وبات محظوراً قبول صناع جدد ؛ ومن جهة ثانية انبغ الفلاحون في القرية لئير العبودية ... وعبثاً كانوا ينتفضون ويتمردون - قبل الاوان - على هذا الزير الفظيع . فامسوا عبيداً مسمرين الى الارض ، خاضعين لاستثمار عنيف ؛ وعزائهم - ان كان للعزاء من مجال - انه لا يحق للسيد بيعهم مستقلين بل تبعاً لارضه اذا باعها . والذين يذهبون منهم هذه المرة الى المدينة لشأن من شؤون السيد يجب ان يكونوا مرتدين نوعاً معيناً من الالبسة او ان يكون على ظهورهم مثلاً خرقة صفراء ليعرف الناس انهم عبيد ...

نمو الرأسمالية

في صدوع النظام الاقتصادي

ليس من محنة تدوم. فالحنة في التاريخ «نمالة صيف ...»
ها هو طريق الهند البحري وها هي اميركا تنفتح ابوابها في القرن
الخامس عشر. وسوقها تنادي الناس ولا سيما التجار. فشرع هؤلاء
يفتشون عن طرائق جديدة تساعد على خلق منتجات اغزر، لان
اسواق اميركا والهند تستوعب كثيراً. فانبروا شطر القرى متحيلين على
لجان المدينة الحرفية — لشراء المنسوجات وسائر المصنوعات من الحرفيين
المنعزلين في القرية، بأسعار بسيطة. ذلك في بادئ الامر. ثم اخذوا
يقدمون مالاً او مواد اولية للمنتجين المنفردين: فيصنع هؤلاء المواد
المقدمة بآلاتهم الخاصة؛ اما المال فاخذوا يعجزون مع الوقت عن دفع
ما هو دين منه عليهم. فرزحوا تحت الديون... وامست ادوات العمل
التي في يد اكثرهم ملكاً للتاجر. ثم ما لبث التجار ان جعلوا يجمعونهم
في اماكن معينة — في ورشات — ويوزعون عليهم العمل: كل يقوم
بفرع من فروع الشغل او يجزء من اجزائه لقاء اجر متفق عليه. فتوزيع
العمل على هذا الشكل — المنيفكتوري — دفع بالانتاج خطوات واسعة
الى امام فاعطى كميات عظيمة بالنسبة لما تعطيه لجان الحرف.
وهكذا جعل الحرفي المنفرد، المالك ادوات انتاجه ومنتجاته،
يتحول الى منتج لا يملك ادوات انتاجه ويعمل بين عشرات العاملين
امثاله في ورشة واحدة ولقاء اجور معينة: اجرة قوة عملهم التي لا
يملكون غيرها.

وهكذا ايضا عانت الشكل الجديد للعمل الانتاجي شكلاً جديداً للعلاقات الانتاجية : رأسمال التجار الربائي التجاري تحول الى رأسمال صناعي ، فاصبحوا يملكون وسائل الانتاج او ادواته والمنتجات بينما لا يملك المنتجون كما قدّمنا الاقوة عملهم التي يبذلونها لقاء اجر معين .

وهذا الشكل الجديد في العلاقات الانتاجية لا بدّ الا ان يخلق شكلاً جديداً يناسبه في الهيئات والمؤسسات الاجتماعية وفي شتى ميادين الفكر والفن والمعتقد . ذلك عندما يشتد ساعده .

على هذا النحو ولد الانتاج الرأسمالي وولدت معه طبقاته الرئيسيتان . وراح ذهب اميركا يتغلغل في صدوع النظام الاقطاعي مساعداً على تفكيكه . وكان الاقطاعيون انفسهم - بسبب تزايد حاجاتهم ولا سيما الكميالية منها - يتهاككون على هذا الذهب ، بالرغم من الصراع الناشب بينهم وبين التجار (الرأسماليين) اصحاب الانتاج الجديد . ولا عجب في هذا التناقض فالنظام الطبقي مبني على تناقضات اعظم واخطر .

وكانت مشاريع التجار (الرأسماليين) بحاجة متزايدة ان في القرية او في المدينة الى الايدي العاملة ، الرخيصة . لكن الاقطاعيين واستعبادهم للفلاحين كما ذكرنا ، واساندة لجان الحرف وتقييدهم للحرفيين كانا يحولان دون ذلك ويعرقلان نمو الانتاج الجديد .

وكان الحمول يدب الى اراضي الاقطاعيين ديباً خفيفاً ، والتلاشي يحتاج الانتاج الزراعي المبني على عمل العبيد المرهقين . وفبارك الرأسماليين الجدد بحاجة ملحة الى المواد الاولية ، وهذه منبعها في اراضي الاقطاعيين ! كيف العمل ؟

ان الجوينذر بشر مستطير .

ويجمل ان نلاحظ هنا ان افكار الفلاسفة والسياسيين و « الابطال » على اختلاف بجداتهم لم تخلق هذا التطور او النظام الجديد بل هو الذي

خلف افكارهم ... مع احترام تأثيرها الايجابي بعد ميلادها افاصح من
الضروري ان يطالبوا وان يعملوا لتحقيق هذه الضرورة التاريخية ، او
على الاصح لتعجيل تحقيقها ، وهي : هدم الاقطاعية وعبوديتها وبلات
حرفها ... وبتعبير آخر : ان يكتبوا ويناضلوا من اجل الحرية للانسان
ولاعماله ، ولتوزيع السلطات التي يحتكرها ملك الدولة الاقطاعية ،
ولتوحيد البلاد واسواقها واشواقها ، ولتوزيع الاراضي على الفلاحين لكي
تنتعش وتعود الحياة اليها ، وهلم جرا .

واخذ يتكفل في بلاد بعد اخرى معسكران وثافتان : معسكر
الاسياد الاقطاعيين وكبار الاكليروس من جهة ، ومعسكر الرسالية
الجديدة او البرجوازية والفلاحين والطبقة العاملة الناشئة وفقراء
الاكليروس من جهة ثانية . وجعل الصراع يحتدم بين المعسكرين : بين
الافلية الحاكمة المدافعة عن الانتاج الاقطاعي القديم المستند الى عمل
العبيد ، والاكثرية الساحقة المحكومة والمدافعة عن الانتاج الجديد
الارقي تدعمه الالة البخارية ... بين الذين يريدون بقاء الحكم المطلق
ويقولون ان السلطة من الله ، والذين يقولون ان السلطة من الشعب
ويريدون الحكم جمهوريا او ملكية دستورية . المعسكر الجديد النابض
بالفتوة والحياة يتهدد ويتوعد ، والمعسكر القديم الحرف يقيم الحفلات
الضخمة ليظهر انه لا يزال قوياً ويوهم الشعب انه يبطل به اياما بطش إما
طغى وتناول . ولكنها كانت آخر ايام الاقطاعيين الجميلة ، اذ راح
نظامهم المتفسخ يتزلزل امام القوى الانتاجية والثقافية الجديدة ، وراحت
الثورات منذ القرن السابع عشر تدحرج عروش الحكم المطلق في اكثر
بلدان العالم الواحد تلو الآخر .

وهكذا نشأت الرأسمالية في صدوع النظام الاقطاعي وظلت تتوعرع
حتى بطشت به واستولت على اكثر ثرواته ...

كتب للمؤلف

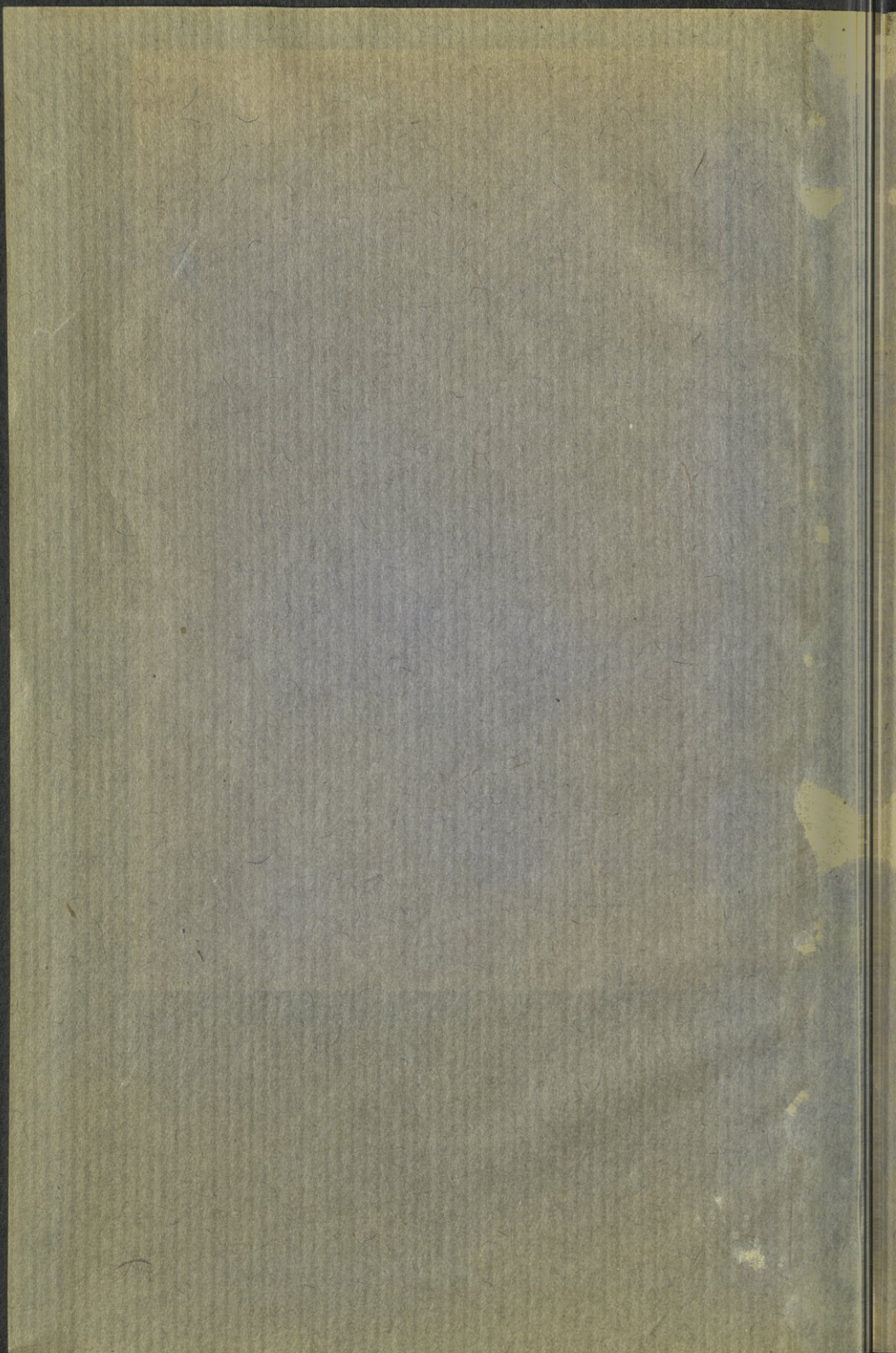
شعر	{	الخلود
		انا طير شرود
		جنية الوادي
(مجموعة قصصية)		دموع افروديت
(الجزء الاول)		طريق التاريخ



انتهى طبع الجزء الاول من هذا الكتاب

في ٥ تموز ١٩٥٠

على مطابع سميا - بيروت - شارع عبد الوهاب



DATE DUE

301:M95tA:c.1

مركزل، قبالان

طريق التاريخ

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01011085

American University of Beirut



301

M95tA

General Library

301
M95tA
C.1